

مذكرة مقدمة ضمن متطلبات نيل شهادة الماستر تخصص: فقه مقارن وأصوله
العنوان

التفسير الفقهي عند ابن كثير
- أحكام الشهادة والإقرار من خلال سورة البقرة أنموذجا -

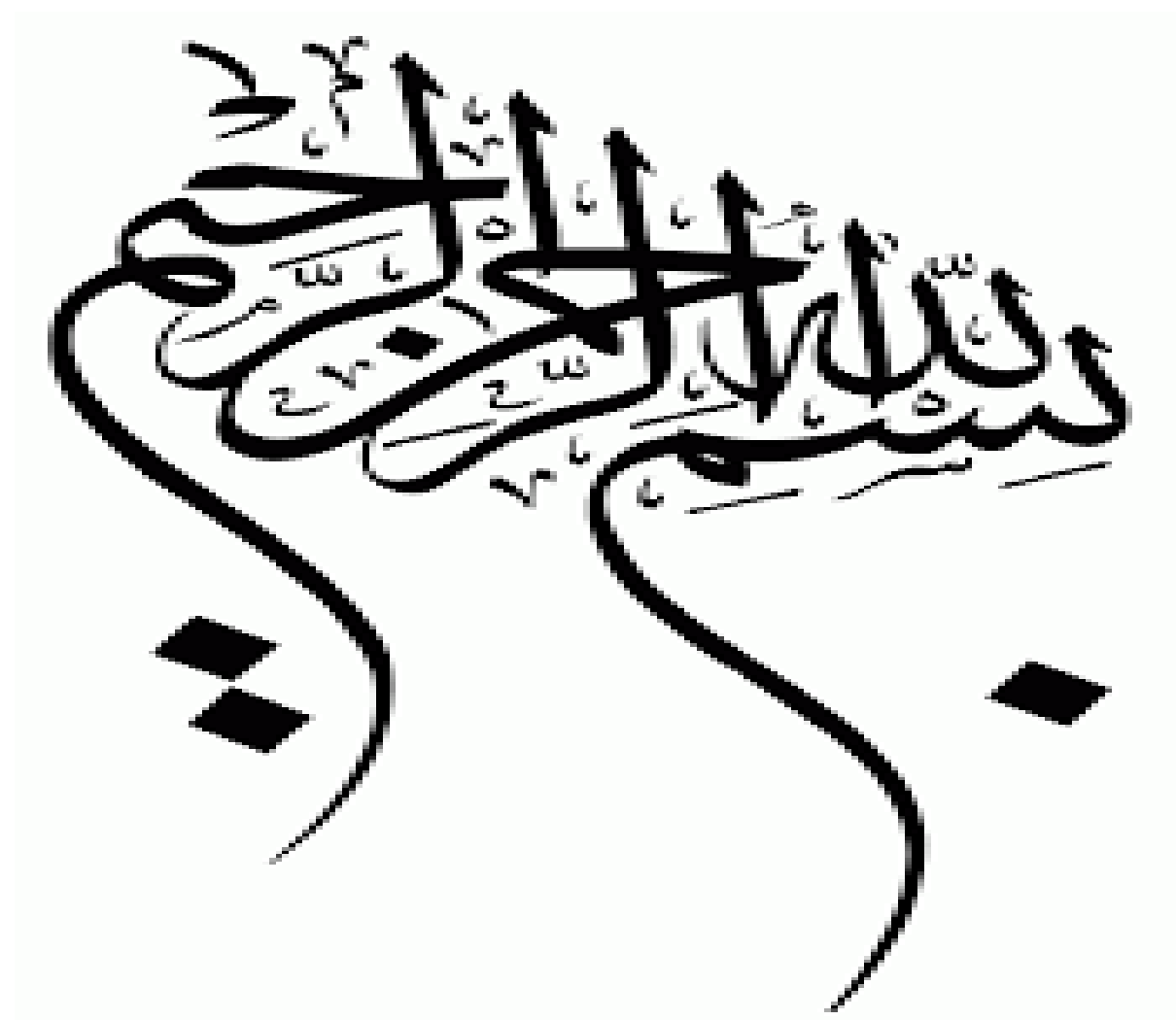
إشراف الأستاذ:

• د. بشير عثمان

لجنة المناقشة

الاسم واللقب	الرتبة	الصفة
.....		رئيسا
بشير عثمان	أستاذ	مشرفا
.....		مناقشا

السنة الجامعية: 2020-2021



وثيقة ايداع مذكرة ماستر

الموضوع: التفسير الفقهي عند ابن كثير أحكام الشهادة
والإقرار من خلال سورة البقرة آخوذًا

إعداد الطلبة:

1- شعيب مرزوق رقم التسجيل: 1635103080

2- رقم التسجيل:

القسم: علوم إسلامية الشعبة: شريعة التخصص: فقه مقارنة وأصول
إشراف: بشير عثمان الرقبة: أساذ محاضر

أقر بأنني تابعت العمل المذكور أعلاه في جلسات إشرافية طيلة الموسم الجامعي: 2020-
2021 وأسمح بإيداعه على مستوى إدارة القسم للمناقشة.



موافقة وإمضاء المشرف(ة):

بشير عثمان

شكر وتقدير

الحمد لله الذي أنار لنا درب العلم
والمعرفة وأعاننا على آداء هذا الواجب
ووفقنا إلى إنجاز هذا العمل وتحت لواء
قوله ﷺ: " من لم يشكر الناس لم يشكر الله "

في البداية لا يسعني إلا أن أتقدم بأسمى
عبارات الشكر الجزيل والتقدير البليغ
للدكتور بشير عثمان الذي أشرف على
توجيهي طوال مراحل هذا البحث بالرغم من
شح وقته وكثرة منشغلاته بيد أنني أحتسب
له بفائق الامتنان صبره الجميل على
قراءته المتأنية والدقيقة لدى الله تعالى
داعيا له بدوام الصحة والعافية
والتوفيق.

كما لا يسعني إلا أن أتقدم بأسمى معاني
الشكر لكل من ساهم في إنجاز هذا العمل،
مثل الصديق نقاش إلياس بكرمه وعطفه فيما
يدعم الدراسة، ورشيد مرزوق الذي لم يبخل
علينا بكل ما يعرف، وكذلك... ياسر جودي
بقلمه الإلكتروني الذي أعطى هذا العمل
صورة نهائية منشودة على نحو متقن، ولكل
من ساهم في هذا الآداء فله منا جزيل
الفضل والإحسان.

الطالب: مرزوق شعيب.

الإهداء

أهدي جهدي المتواضع هذا إلى من حُبب الله
إليهم الإيمان وزينه في قلوبهم ، وللذين
تعلقوا بكتابه العزيز، من حفظ لآياته
وتدبر لمعانيه وتطبيقاً لأحكامه ، والتماساً
لمنهج السلف وأهل السنة في تفسيره .

نظر هديت إلى سماء المشتري ...
ليلاً وحسبك رؤية
البيدران .

بيدر الشمس قد تجلى
دوننه ... بدر البشير وفي الدجى عثمان .

مقدمة

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده محمد خير الأنبياء
والرسل، أشاع النور، وبدد الظلمة، وقضى على الجهل، فصلّى الله عليه وسلم،
وعلى آله وصحابه، ومن سار على نهجهم، واقتفى آثارهم إلى يوم الدين، وبع:

فقد كانت البشرية تموج في جو من الفوضى واللاقرار، وتداعي الأخلاق،
وتفشي الرذائل إلى أن أذن الله بطلوع شمس الإسلام والمسلمين، ونزول القرآن
الكريم، الذي فصل بين الحق والباطل، والهدى من الضلالة، والرشد من الغي، فيه
أخرج الله الناس من الظلمات إلى النور، ومن الجهل إلى العلم، ومن الكفر إلى
الإيمان وقد كفل الله حفظه فقال: "إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون" ¹، وإنجازا
لوعده الله: فقد بذل الصحابة والتابعون - رضوان الله عليهم - جهودا كبيرة في خدمة
هذا الكتاب العزيز، في التفسير، والقراءات، وسائر علوم القرآن، كما بذل من أتى
بعدهم من العلماء من تابعي التابعين، وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين، ومن قد جاء
بعدهم أعظم المجهودات في ذلك، ولذا نرى مكتبتنا الإسلامية حافلة بما يجل عده أو
حصره، من هذه المؤلفات.

وإن من أجل الكتب التي ألفت في التفسير، والتي جمعت تفاسير الصحابة
والتابعين ومن قدم بعدهم "تفسير القرآن العظيم" للحافظ إسماعيل بن عمر بن كثير
الدمشقي، وإذا فهو التفسير الذي وقع اختياره عليه لتقديم دراسة عن منهجه في
التفسير في هذه الرسالة، ولكم شعرت برغبة عارمة في تولي هذا الموضوع المتعلق
بالتفسير، وأحمد الله الذي وفقني إلى اختيار "منهج ابن كثير في التفسير" بالذات من
بين العديد من مناهج المفسرين، والله الحمد جل وعلا، وله المنة

سبب اختيار الموضوع:

ولأن من أهم دواعي اختياري لمنهج هذا التفسير هو أنه يعتبر من أفضل
وأصح كتب التفسير بالآثر، هذا إن لم يكن أصحها وأحسنها على الإطلاق، لعنايته
بمناقشة أسانيد ومتون الأحاديث والآثار.

أهمية وأهداف الدراسة:

ولأن الحافظ ابن كثير قد وفق في اختيار أحسن الطرق في تفسير القرآن والتي
سنعمل على تجليتها فيما بعد إن شاء الله، وكذا لتمسكه في تفسيره بعقيدة السلف في
حديثه على آيات العقائد والأسماء والصفات، ومنزلته بين جمهور المفسرين ونبوغه

¹سورة الحجر، الآية 9.

في كثير من العلوم، مما جعل مؤلفاته جديرة بالعناية والتتبع والدراسة والتحقيق ،
كذلك فإن دراسة التفسير هو بمثابة خدمة جليلة لكتاب الهع تعالى الذي هو أجل الكتب
وأشرفها علما، وفي خدمته ودراسته الأجر والثواب إن شاء الله وما إلى ذلك من
الأسباب الداعية إلى رغبتني في اختيار هذا الموضوع كما سيثبتته حرصي على
معالجتي له وبيان مميزات هذا التفسير إن شاء الله تعالى.

طرح الإشكال:

كيف تبدوا السمات الفعلية لمنهج ابن كثير في تفسير القرآن الكريم ، حيث
اندرجت تحت هذا الإشكال عدة أسئلة والتي من بينها: كيف كانت أحوال العصر الذي
عاش فيه الحافظ ابن كثير؟ ومميزات حياته؟ ما هو التفسير وما هي أهم أنواعه؟
ما هو منهج ابن كثير في تفسير القرآن العظيم.

ما مجمل عملية تطبيق منهج ابن كثير في تفسير آيات الشهادة والإقرار
"سورة البقرة أنموذجا"؟ وما خلاصة الأحكام المستمدة في أثناء تفسير آيات
الشهادة والإقرار؟

هيكلية الموضوع:

وللإجابة على الإشكالات السالفة الذكر، عملت على تقسيم العمل إلى ثلاث
فصول وقد اندرج ضمن كل فصل مبحثين وهو على النحو التالي :الفصل الأول:
عصر ابن كثير وحياته، وفيه مبحثين :أ) المبحث الأول: تحدثت فيه عن الأوضاع
السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي كانت سائدة في ذلك العصر، وأيضا سقنا
الكلام على أهم الميزات الثقافية والعلمية التي زخر بها عصر الحافظ ابن كثير . أما
الفصل الثاني وهو تحت عنوان: التفسير وأنواعه ومنهج ابن كثير في التفسير والذي
قسمته إلى مبحثين أيضا جعلنا الأول كمعالجة لماهية التفسير وأنواعه، أما الثاني
فقمنا فيه بإيضاح بالصورة التي يظهر عليها منهج ابن كثير في التفسيري ،وقد ذيلنا
أطروحتنا هذه بفصل ثالث وأخير تحت مسمى تطبيق منهج ابن كثير في تفسير آيات
الشهادة والإقرار "سورة البقرة أنموذجا" فكان هذا الفصل بمثابة قسم عملي مرتبط
أساسا بالجانب الفقهي لتفسير آيات الشهادة والإقرار الواردة في سورة البقرة،
فالمبحث الأول يناقش المنهج المتبع لدى ابن كثير في تفسير هذه الآيات المعنيات من
جانب الأثر طبعا، أما المبحث الآخر فيسلط الضوء على أسلوب هذا المنهج في
دراسة هذه الآيات المبيّنات على نحو فقهي أو ما يعرف بالتفسير الفقهي على أي
حال، وفي آخر المطاف وبانتقالنا إلى خاتمة البحث قمنا برصد مجمل النتائج التي

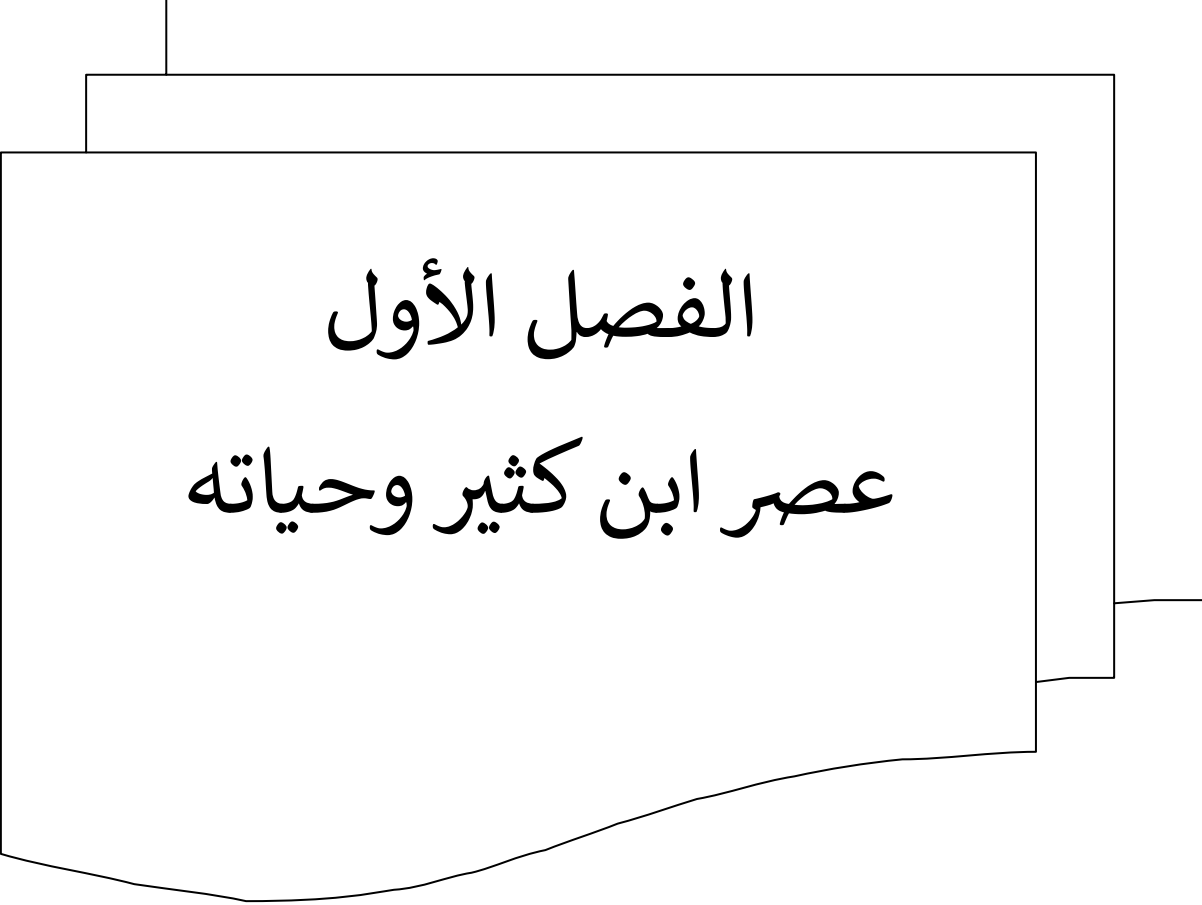
تحققت من وراء إقامة هذه الدراسة راجين الله أن يسدد خطانا لما فيه مرضاته ومبتغاه ويوفقنا جميعا لفهم معاني كتابه العزيز.

منهج الدراسة:

اعتمدنا في منهج دراستنا هذه على إتباع المنهج الاستقرائي بنوعيه، وبعضا من التاريخي، معتمدين في ذلك عدة آليات كالملاحظة والفرضيات والتجارب حسب خصوصية كل جزئية من جزئيات البحث، أما آلية السرد فكانت من أجل عرض ما تعلق بأوضاع عصر إمامنا ابن كثير، وكذا حياته وطلبه للعلم، كما استقينا مادتنا العلمية والمعرفية من مختلف مناهلها ومصادر الأصيلية والتبعية متتبعين طريقة عمل النقاط المفصلية للمنهج التفسيري عند الحافظ ابن كثير.

نقد المصادر:

لقد اعتمدنا في بحثنا هذا على جملة من المصادر والمراجع، أمدتنا بكم وفير من المعلومات عن المنهج الذي اختاره ابن كثير في التفسير ومختلف سماته الأساسية.



الفصل الأول

عصر ابن كثير وحياته

المبحث الأول : عصر ابن كثير

المطلب الأول: الحالة السياسية.

لقد عمر الحافظ ابن كثير في أثناء الثلاثة أرباع الأولى من القرن الثامن للهجرة (701-774) وهي فترة شهدت حكم دولة المماليك في مصر والشام خلفا للعباسيين في تولي زمام الأمور وقيادة العالم الإسلامي آنذاك، كما أنها عرفت باسم "دولة المماليك البحرية".

وقد امتدت هذه الفترة من الزمن امتدادا جلب معه الكثير من الأحداث الجسيمة والنكبات المتلاحقة التي مست بلاد المسلمين بكل سوء صنيع ممن عاداهم ، فمن جهة كان الدخلاء الصليبيون قد ضيقوا على البلاد الإسلامية لقرنين من الزمن منذ دخولهم سنة 491 وخروجهم منهزمين سنة 690 وقد جرت في خلال ذينك القرنين من الحروب والمعارك ما هلك بموجبه أزيد من خمسة ملايين من الأنفس¹، ومن جهة أخرى كان قد ألم بالمسلمين في كل قطر من أقطار العالم الإسلامي ما زلزل كيانه ومزق أركانه ، بعد هجوم تلك القوة الشديدة التي وصفت بالهمجية والدمار من جهة أخرى ، قوة التتار التي بالرغم من أنها عدت قوة بلا تاريخ ولا حضارة ، وصارت تمثل السطوة البربرية للعالم الجديد في ذلك الزمن، إلا أنه أمكنها النيل من الخلافة الإسلامية والقضاء عليها بعد سقوط بغداد بأيديهم سنة 656 هـ وضياع الدولة العباسية وقتل خليفاتها المستعصم بالله الخليفة السابع والثلاثون والأخير من خلفاء بني العباس.

وفي هذا يقول ابن كثير في تاريخه²: "وقد اختلف الناس في كمية من قتل ببغداد من المسلمين في هذه الواقعة، فقليل ثمانمائة ألف وقيل ألف ألف وثمانمائة ألف، وقيل بلغت القتل ألفي ألف نفس، فإنا لله وإنا إليه راجعون"، هذا إلى جانب أعمال النهب والسبي والقتل التي استمرت أياما عدة خربت معها ببغداد خرابا لم يعهد مثله، فأحرقت الكتب النفيسة وانقضت تلك الدار وعملت في مصابها المراثي والأشعار³.

هذا وما أن صارت مصر والشام بعد انفضاض الصليبيين من السواحل ملكا للمسلمين، وكان مصدر الأعمال والسياسة قد ظل في كنف الشام حينها ، قامت مصر فنازعتها في الأمر بابتلاع القطر الشامي كله مما جعل الشام تبدو أشبه بإمارة

¹ محمد علي كرد، خطط الشام، د م ن، د ط، د ت ن، ج 2، ص 128، بتصرف.

² ابن كثير، البداية والنهاية، مكتبة المعارف، بيروت، ط 7، ج 13، ص 202.

³ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1992، ص 47-48، وبدائع الزهور في وقائع الدهور، ج 1، ص 403.

يتولاها نائب من قبل السلطان في مصر. كما أن دولة المماليك امتازت بكثرة الولاة والسلاطين طيلة فترة الحكم التي بلغت 144 سنة حيث وصل عدد من حكم في هذه المدة إلى 29 سلطاناً²، وكل ذلك مرده الانقلابات الكثيرة والاضطرابات العسكرية، ولعل خير دليل على ما ذكرنا هو ما كان يظهر من اختلافات حادة وقعت بين الأمراء والسلاطين أنفسهم بدافع المطامع، والرغبة في تولي الحكم واعتلاء السلطنة، وأن يستأثر الواحد منهم بالأمر دون أخيه أو عمه أو أي كان بعد الإطاحة بخصمه ، وإثبات التهمة في حقه؛ وتواترت سياسة عزل المسؤولين الذين عملوا في عهد السلطان السابق حتى شمل الأمر مصادرة الإداريين وأموالهم³، ونورد هنا على سبيل الاستشهاد لذلك ما ضمنه صاحب كتاب خطط الشام فيه من وقائع سنة 708 تحت عنوان "غزوة الأرمن والكسروانيين وتزعزع السلطنة"⁴، قال: وقد خرج السلطان الناصر محمد بن قلاوون من مصر يظهر التوجه إلى الحجاز، فلما وصل إلى الكرك أمر الأمراء الذين حضروا في خدمته بالمسير إلى الديار المصرية وأعلمهم أنه جعل السفر إلى الحجاز وسيلة إلى المقام بالكرك.

وكان سبب ذلك استيلاء سلار وبيبرس الجاشنكير على المملكة واستبدادهما بالأمر وتجاوزا الحد في الإنفراد بالأموال والأمر والنهي ، ولم يتركاه غير الاسم فاشتور الأمراء فيما بينهم واتفقوا على أن تكون السلطنة لبيبرس الجاشنكير فجلس على سرير السلطنة على أن يكون سلار مستمرا على نيابته... - ثم حكى قوله بأن جماعة من المماليك خرجوا قاصدين الكرك وقد وفدوا بالطاعة للسلطان الناصر محمد بن قلاوون كما فعل الناس في مصر والعساكر قدموا مبايعين له على السلطنة لمرّة هي الثالثة بعد ذلك ، وقدر عندها لدولة بيبرس الانحلال بخلع نفسه وقد قتل هو وسلار بعد أن تم القبض على كليهما.

وبالحديث عن دور ممالك السلطان أو ممالك والده في ذلك الحين فإنه كان من المعتاد توليهم مواطن النيابة في البلاد كلها بل كانوا أشبه بأصحاب إقطاعات يأخذون بأمر السلطان في حربهم وسلمهم⁵، وما نالتهم هذه المنزلة الرفيعة إلا أن السلطين

¹ محمد علي كرد، خطط الشام، ج2، ص135.

² راجب السرجاني، قصة التتار من البداية إلى عين جالوت، دار الأريب، بيروت، د ط، د ت ن، ص16.

³ حياة ناصر الحجي، السلطة والمجتمع في سلطنة المماليك، جامعة الكويت، لجنة التأليف والتعريب والنشر، الشويخ، ط1، 1997، ص61.

⁴ محمد علي كرد، خطط الشام، ج 2 ص 145 - 146، أيضا النجوم الزاهرة، ج 8، ص 223، وبدائع الزهور، ج 1، ص 420-421-422-423، والسلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزي، ص 421، وكتاب الناصر محمد بن قلاوون، تأليف أسامة حسن، ص 34.

⁵ محمد علي كرد، خطط الشام، ج 2، ص 146.

الفصل الأول.....عصر ابن كثير وحياته

كانوا يولون عناية هامة وكبيرة لتربية مماليتهم وتدريبهم، فهم كانوا يشكلون الحرس السلطاني الخاص في القاهرة أين محل القوة الفعلية في الجيش المملوكي، وقد سعى في منحهم أعلى الوظائف قدرا وأكبرها إقطاعا، سواء في البلاط أو الجهاز الحكومي.

وكان الأمراء والولاة في شتى الأقاليم قد اتخذوا بقربهم جيوشا من المماليت قد تصل إلى ثمانمائة مملوك وقد شكلت القسم الثاني من عموم الجيش المملوكي لكنها تركزت بالأقاليم خارج القاهرة وحسب، وضم الجيش قسم ثالث ألفه من يدعون بلقب " أولاد الناس"، " أولاد المماليت والأعراب والتركمان وبعض المصريين المنخرطين فيه"¹، وكان ملك الناصر محمد بن قلاوون منذ وفاته سنة 741 قد دام ثلاث مرات مدتها ثلاث وأربعين سنة وتسعة أشهر وسبعة عشر يوما حتى لقد عد ذا شأن قل نظيره أن يكون، وأن ما أكسبه السمعة الحسنة هو زيادة رغبته في إحلال العدل والإنصاف بشعبه شاكرا ووقوفهم بجانبه قبل ذلك في كل ما ساءه من جراء الانقلابات المتلاحقة عليه في كل مرة يخلع فيها رغما عنه، وأقيم بعد وفاته ابنه أبو بكر ثم الأشرف علاء الدين كجك².

هذا ما تم من أخبار الملك الناصر محمد بن قلاوون سقناه باختصار شديد، وقال صاحب خطط الشام في حديثه عن هذه الفترة إن حكومة المماليت عملت على تنصيب وعزل الكثير من الولاة لاسيما في دمشق، فتولى في كل وقت نائبا جديدا وربما في كل شهر³.

ونذكر في الأخير أن ما زاد اضطراب الأحوال السياسية كثيرا هو الخلاف المذهبي بين أهل السنة والرافضة منها الفتنة العظيمة التي ظلت تطرأ بين الفرقتين ببغداد نهبت جرائها الكرخ ودور قرابات الوزير فحنق لذلك ما جعله يدبر للإسلام وأهله ما وقع من الأمر الفظيع بدخول التتار لبغداد⁴.

المطلب الثاني: الحالة الاجتماعية

إن ما أدى إلى اضطراب الحالة السياسية في ظل حكم الدولة المملوكية وما عرفته دولة الإسلام في تلك الحقبة من الزمن خاصة في النصف الثاني من القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي وما جاوره من السنين قد كفل أيضا تدهور وسوء الحالة الاجتماعية شيئا كثيرا، من تردي في جانب المقدرة الإدارية

¹قاسم عبده قاسم، عصر سلاطين المماليت - التاريخ السياسي والحضاري -، عني للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ط1، 1998، ص167 وما بعدها.

²ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، د م ن، د ط، د ن، ج1، ص295 وأنظر أيضا البدائع لابن إياس، ج1، ص486

³محمد علي كرد، خطط الشام، ج2، ص149-150.

⁴ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص196، 201-202.

الفصل الأول.....عصر ابن كثير وحياته

والسلوكيات الأخلاقية العامة مثل تفشي مظاهر الرشوة والوساطة والمحسوبية وعدم الإخلاص والإتقان، حتى إنه ذكر بأن زلزلة عظيمة ضربت مصر والقاهرة سنة 702 في فترة فساد ولهو وشرب للخمر لا يمكن وصفها فهلك خلائق كثر وخربت مواضع مشهورة منها جامع عمرو بن العاص بمصر، والجامع الأزهر، وقد التزم النائب سلار النائب بعمارتها ويذكر المقريري أن اشتدادا قد حصل في الغلاء بين فترة وأخرى خاصة بالديار المصرية فتفاوتت الأسعار إلى حد بالغ، فهلك الدواب جوعا وشق على الناس في أمر العيش فشحت الأنفس وكثر التعزير في مصر والقاهرة لبياعي لحوم الميتة فأكل الناس لحم الأدمي من غلبة الأحوال عليهم وضيق الأرزاق¹.

واشتد تفاقم الأوبئة فكان يطرح من القاهرة في كل يوم ما يزيد على سبعمائة ميت، وأما بلاد الشام فكان لتأخر المطر عنها حتى بقدم الشتاء وقع خطير، فآل الأمر إلى توقف النيل وتزايد الغلاء في سائر البلاد²، واستولى على الناس بين العقد والآخر ما يعكر صفاء أحوالهم وشؤونهم من غلاء وأمراض حادة ونقص في مؤونة العيش وتبلبل البلاد بالصراعات الداخلية منها والخارجية، ومن المتبادر للذهن أن مجتمع مصر في عصر السلاطين المماليك كان مجتمعا شيد على بناء طبقي قاس، ولأن التقسيم حينئذ اقتضى أن تمتلك طبقة كل الحقوق والامتيازات وهم طبقة الحكام العسكريين، في حين يمتلك أفرادها الأراضي الزراعية التي يقوم عليها اقتصاد البلاد، فيكون لهم فقط حق الحكم والإدارة، مقابل طبقة ثانية مثلتها الرعية هي التي يقتصر دور أصحابها على الإنتاج ودفع الضرائب والتعرض دائما لابتزاز المماليك وضغطهم دون أن يصير لهم الحق في مباشرة مسؤوليات الحكم والسياسة، بيد أن هذا الوضع كان هو المنعكس على صورة الحياة المصرية وقتها، وليس من السديد القول إن فوارقا ما بين مختلف الشرائح الاجتماعية داخل كل من هاتين الطبقتين لم تحدث أبدا حينها، فالحقيقة تقول بأن المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك كان منقسما إلى طبقتين من الحكام والمحكومين ليس إلا³.

وربما سرى في اعتبار المماليك بأن دمشق تقع بالدرجة الثانية بعد القاهرة بفضل عدد سكانها الذي جاوز ما تحمله باريس ذاتها في ذلك الوقت، وكان العرب بمثابة السواد الأعظم والغالبية من سكان دمشق واشتملت هذه الأخيرة على حوالي مئة ألف نسمة، وقد جرى استخدام العربية في كلامهم بالبيت والمدرسة والسوق، مع

¹ المقريري، السلوك لمعرفة دول الملوك، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1997، ج2، ص363-364، وكتاب بدائع الزهور، ج1، ص419.

² المقريري، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج2، ص266-267-268.

³ قاسم عبده قاسم، المرجع السابق، ص162.

الفصل الأول.....عصر ابن كثير وحياته

أن جماعات من غير الناطقين بها قدموا وفودا على دمشق زمن المماليك أو لعل الحكومة تعمدت الإتيان بهم، سوى أن أغلب السكان كانوا مسلمين، مع بعض فئات مسيحية وأخرى شكلت اليهود ظلوا يقطنون المدينة ويدفعون الجزية ولا يولون المسؤولية، وعرف الناس في أيام المماليك تعرضهم لمصادرة الأملاك والضرائب المفروضة عليهم من قبل الدولة أو السلطان وجفاء المعاملة لدوافع كثيرة، على أنه لم يستثنى من المغارم مسيحي أو يهودي بل حتى المسلمون أيضا.¹

وتوالى الهجرات إلى مصر من جماعات مختلفة وفي أوقات متباعدة أكبرها في زمن الناصر محمد، ومن الجلي وضوحا أن ما طغى أثره وميز الحياة الاجتماعية بهذا الطابع الهش نسبيا كان السبب في إحلاله عنصر آخر ذو أهمية بالغة يشغله اقتصاد البلاد المتبع، فقد اعتمد المماليك على النظام الإقطاعي الموروث عن سبقهم من السادة الأيوبيين ابتداء إلا أن هذا النظام خضع لتطورات حاسمة، وبكل الأحوال فقد كان المماليك يعيشون على إقطاعاتهم التي منحت لهم وهي تتوافق مع الرتبة العسكرية لكل واحد فيهم.

كما أن الإقطاع في بداية عصر المماليك كان متمركزا في مكان واحد خلافا للروك الناصري (نسبة إلى السلطان محمد بن ناصر بن قلاوون) الذي حل بعده وتفرق في جهات عديدة وأقاليم مختلفة من البلاد طمعا من السلاطين فيعدم تمكين نفوذ الأمراء خلال استقرارهم لفترات طويلة في إقطاعات دائمة وقد نجحوا في ذلك نجاحا بالغا²، بيد أن سياسة سلاطين المماليك التي ساروا عليها في منح الإقطاعات باتت بمرور الوقت خطرا محدقا على الاقتصاد المصري، ذلك أن الأمراء والجنود أصحاب الإقطاع كانوا يهملون زراعة الأرض لإدراكهم مسبقا أنه لن يستقر به مطولا، وبالتالي افتقدت وسائل الري والصرف فكثرت حوادث انقطاع الجسور وعطش الأراضي الزراعية وتدهور النظام السياسي الإقطاعي القائم مما زاد اعتماد الدولة المملوكية على الرواتب النقدية. وحين لم يستطع السلاطين إشباع مطالب المماليك كثرت حوادث الشغب والتمرد والاعتداء على الناس في الشوارع والأسواق في أواخر ذلك العصر الزاخر بالأحداث.³

كما أن أصحاب السلطة في دولة المماليك البحرية لم يتحرجوا من الخوض في الأعمال التجارية بما خلف فسادا كبيرا وظلما اقتصاديا انتهجه أولادهم في الاستيلاء على الأراضي بأثمان بخسة بعد ذلك، وفي الربع الأخير من القرن الثامن الهجري

¹ نقولا زيادة، دمشق في عصر المماليك، نشر بالاشتراك مع مؤسسة فرنكلين للطباعة والنشر، بيروت، نيويورك، 1966، ص 131-135.

² قاسم عبده قاسم، عصر سلاطين المماليك، ص 168، بتصرف.

³ قاسم عبد قاسم، المرجع السابق، ص 169.

الفصل الأول.....عصر ابن كثير وحياته

زادت عمليات جباية الأموال ولم يسلم أصحاب حملات الحج من الغرامات الفائقة التي أقرتها إدارة الدولة في صالحهم¹.

ونلفت الانتباه إلى أن الركود الاقتصادي أو العجز عن التجهيز العسكري قابله تكس الأموال في الخزائن الخاصة للأمراء والسلاطين ما رفع سوء الأحوال الاقتصادية بتكرر ظاهرة الغلاء في الغلال خلال العقود التي تلت وفاة السلطان الناصر محمد بن قلاوون سواء في مصر أو الشام².

أيضا بعض الإجراءات الاقتصادية التي اضطر بعض السلاطين لتطبيقها سدا لعجز خزانة الدولة وإفلاسها بسبب الحروب التي تقرر عليها خوضها داخليا أملا في إنهاء الفتن والثورات من قبل بعض القبائل وخارجيا للوقوف كسد منيع ضد أطماع العالم كله خاصة أطماع الصليبيين في أرض الإسلام³.

بالرغم من سوء أحوال ذلك العصر وعلى صعيد سياسي أو اجتماعي أو اقتصادي داخلي كان أو خارجي إلا أنه من غير الجدير بنا إغفال حقيقة القول بأن نشاطا علميا زاهرا عد من سمات تلك الفترة الأكثر تميزا في حينها بما ضمن تفوقها إلى حد ما لمدة طويلة، وبشكل ناجح، والجدير بالذكر هو أن سعة انتشار العلم ومواقع طلبه في ذلك العصر كان قد مهد له الطريق رغبة سلاطين المماليك وأمرائهم في العلم واهتمامهم به والبر والإحسان إلى أهله فتنافسوا في التشجيع على العلوم وإغداق العطايا على العلماء وبسط الأوقاف، ذلك أنهم امتلكوا العقلية والخبرة لكي يقيموا ملكا مستقرا وفعالا في نفس الوقت، ومثالا على حرصهم في تبني هذا ما أقدم عليه بعضهم كالمولى صاحب بهاء الدين علي بن محمد حال دخوله إلى دمشق سنة 699 حيث نظر في الوقوف وما يصرف منها دون الحاجة أو لغير علم نافع فأبطله، وأعمله في مصالح الجامع وكل ما ينفع المسلمين علمه، ورتب فيه مصحفا يقرأ فيه القارئ ويكون له شيء معلوم من المال بذلك⁴.

وقد اجتهدوا في توسعة المساجد وعمارتها، ومن الجوامع نذكر جامع مسجد الأقباص وجامع السقيفة وجامع القابون وجامع داريا الكبرى وجامع المزة⁵، وجامع الكريمي بالقبيبات، قال الحافظ ابن كثير في تاريخه في سنة 718: وفي بكرة يوم الاثنين التاسع من صفر قدم القاضي كريم الدين عبد الكريم بن المعلم هبة الله، وكيل

¹ حياة ناصر الحجي المرجع السابق، ص 89.

² ابن إياس، بدائع الزهور، ص 523.

³ علي السيد علي محمود، الحياة الاقتصادية في جدة في عصر سلاطين المماليك، المطبعة التجارية الحديثة، القاهرة، 1991، ص 138.

⁴ أنظر الدارس في تاريخ المدارس ج 2 ص 314

⁵ تاريخ المدارس ج 2 ص 330-331

الفصل الأول.....عصر ابن كثير وحياته

الخاص السلطاني بالبلاد جميعها، قدم إلى دمشق وأمر ببناء جامع القبيبات الذي يقال له جامع كريم الدين. وذكر في تاريخه أيضا في سنة 735 في المحرم منها: وفيه أمر السلطان، الملك بن قلاوون بعمارة جامع القلعة بدمشق وعمارة جامع مصر العتيقة¹.

وكان لكثرة دور التعليم فيها فضل آخر فقد حوى كل جامع في جانب منه دارا للقرآن وأخرى للحديث الشريف أو مدرسة، فمن الدور القرآنية نلفي هناك دار القرآن الكريم الجزرية والتي كان في تفقه الشيخ شمس الدين ابن الجزري بها أثر كبير في إرساء أسسها فيما بعد على نحو حسن، ودار القرآن الكريم الوجيهية وواقفها هو الشيخ أبو المعالي التنوخي، ودار القرآن الكريم السنجارية والمنشئ لها علاء الدين علي ابن إسماعيل بن محمود السنجاري².

أيضا من دور الحديث التي قامت في تلك السنين آنذاك أو قبلها ودرس بها علماء مسلمون لا لذة لهم في غير نشر العلم وتدوينه حتى خلد ذكرهم في التاريخ بحسن السيرة وكانوا معاصرين لصاحب ترجمتنا هذه نذكر:

دار الحديث الأشرفية: وممن درس بها تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب السبكي حيث يذكر أنه قد ولي القضاء لوفرة علمه وقد درّس بمصر والشام في مدارس كبيرة ، فبدمشق العزيزية والعادلية الكبرى والناصرية ومشیخة دار الحديث الأشرفية والشاميتين، وقد ذكره شيخه الذهبي فيالمعجم المختص وأثنى عليه³، وكذلك دار الحديث البهائية وقد ولي مشيختها السيد الشريف شمس الدين أبو المحاسن أو أبو عبد الله الحسيني الدمشقي المولود في سنة 715 وكان عالما ومحدثا وفقهيا، وقال الحافظ العراقي إنه شرع في شرح " سنن النسائي " ومما ألف، كتاب "اختصار الأطراف للمزي" وكتاب "رياض الزاهدين في مناقب الخلفاء الراشدين "والمدرسة السامرية: وقد ولي مشيختها الشهاب بن قوام وقد طلب الحديث وأفتى هنالك.

وكانت المدارس المشتغلة بكافة العلوم شيئا كثيرا يخدم حاجة ذلك العصر وأهله من الراغبين في نيل العلم وقد عدد النعيمي الدمشقي في كتابه "الدارس لتاريخ المدارس" 60 مدرسة كلها للشافعية و 52 أخرى للحنفية، وعلى سبيل التمثيل نذكر بعض مدارس الشافعية ببعض الأثر، منها المدرسة الشامية البرانية وقد درس بها القاضي شرف الدين أبو طالب عبد الله القرشي الدمشقي وبالمدرسة الرواحية والشيخ كمال الدين ابن الزملكاني وتولى تدريس الشامية البرانية بعده من مصر زين الدين ابن المرحل الشافعي⁴، والمدرسة القوصية ودرس بها شمس الدين محمد بن عيسى

¹الدارس لتاريخ المدارس ج 2 ص 321- 341

²أنظر تاريخ المدارس ج 1 ص 8- 11- 13

³المصدر السابق ج 1 ص 28

⁴المصدر السابق ج 1 ص 209 - 213 بتصرف

الفصل الأول.....عصر ابن كثير وحياته

المعروف بابن المجد الشافعي وكان اشتغل بفنون كثيرة ثم درس بها الإمام بهاء الدين ابن المشهد¹.

ومن مدارس الحنفية نذكر المدرسة العزية الحنفية وصاحب وقفها عز الدين أبيك المعظمي وذكر أن من درس بها القاضي مجد الدين قاضي الطور وكذلك المدرسة العلمية والمدرسة الفتحية وهذه منشئها الملك الغالب فتح الدين، وكان موطنها ببلاد الشام و القاهرة، بالإضافة إلى الظهور الواسع لمجموعة مجتهدين وعلماء وحفاظ أفاضوا في الساحة مع ما حصلوه من علوم كثيرة كشيخ الإسلام ابن تيمية والحافظ المزي والحافظ الإمام الذهبي والعلامة ابن القيم والحافظ ابن كثير وغيرهم، ومما ساعد على ذلك امتياز فترتهم بالحرية في منهج التفكير وجودة البحوث العلمية و غزارتها، حتى حظي العلماء بقيمة فضلى لدى العامة وعلا كعبهم في نظر الخاصة من أفراد الدولة كذلك، إذ عملوا على توجيه اهتمامهم الأكبر نحو الإمام بكتب الأقدمين والاستفادة منها بالدراسة والنقد والتخريج والموازنة بينها حيناً آخر مما كان غالبه السير والتحقيق في كتب اللغة وعلوم الدين وفاقاً لما عهد في عصر الحافظ ابن كثير والذي هو الآخر تصدر لهذا الشأن في عمل التفسير والحديث والتاريخ والفقه وما دونه، حيث يظهر للدارس في جميع مؤلفاته - سيأتي التعريف بها لاحقاً - أثر الكم المعرفي الذي حازه والعلم الزاخر الذي شيد له مبدأً وعقيدة عز أن يطرأ عليها ما يريبها.

المطلب الثالث: الحالة الثقافية والعلمية

بالرغم من سوء أحوال ذلك العصر وعلى صعيد سياسي أو اجتماعي أو اقتصادي داخلي كان أو خارجي إلا أنه من غير الجدير بنا إغفال حقيقة القول بأن نشاطاً علمياً زاهراً عد من سمات تلك الفترة الأكثر تميزاً في حينها بما ضمن تفوقها إلى حد ما لمدة طويلة، وبشكل ناجح، والجدير بالذكر هو أن سعة انتشار العلم ومواقع طلبه في ذلك العصر كان قد مهد له الطريق رغبة سلاطين المماليك وأمرائهم في العلم واهتمامهم به والبر والإحسان إلى أهله فتنافسوا في التشجيع على العلوم وإغداق العطايا على العلماء وبسط الأوقاف، ذلك أنهم امتلكوا العقلية والخبرة لكي يقيموا ملكاً مستقراً وفعالاً في نفس الوقت، ومثالا على حرصهم في تبني هذا ما أقدم عليه بعضهم كالمولى صاحب بهاء الدين علي بن محمد حال دخوله إلى دمشق سنة 699هـ حيث نظر في الوقوف وما يصرف منها دون الحاجة أو لغير علم نافع

¹المصدر السابق ج 1 ص 343

الفصل الأول.....عصر ابن كثير وحياته

فأبطله، وأعمله في مصالح الجامع وكل ما ينفع المسلمين علمه، ورتب فيه مصحفاً يقرأ فيه القارئ ويكون له شيء معلوم من المال بذلك¹.

وكان لكثرة دور التعليم فيها فضل آخر فقد حوى كل جامع في جانب منه داراً للقرآن وأخرى للحديث الشريف أو مدرسة، فمن الدور القرآنية نلني هناك دار القرآن الكريم الجزرية والتي كان في تفقه الشيخ شمس الدين ابن الجزري بها أثر كبير في إرساء أسسها فيما بعد على نحو حسن، ودار القرآن الكريم الوجيهية وواقفها هو الشيخ أبو المعالي التنوخي، ودار القرآن الكريم السنجارية والمنشئ لها علاء الدين علي ابن إسماعيل بن محمود السنجاري².

أيضاً من دور الحديث التي قامت في تلك السنين آنذاك أو قبلها ودرس بها علماء مسلمون لا لذة لهم في غير نشر العلم وتدوينه حتى خلد ذكرهم في التاريخ بحسن السيرة وكانوا معاصرين لصاحب ترجمتنا هذه نذكر:

دار الحديث الأشرفية: وممن درس بها تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب السبكي حيث يذكر أنه قد ولي القضاء لوفرة علمه وقد درس بمصر والشام في مدارس كبيرة، فبدمشق العزيزية والعادلية الكبرى والناصرية ومشیخة دار الحديث الأشرفية والشاميتين، وقد ذكره شيخه الذهبي فيالمعجم المختص وأثنى عليه³، وكذلك دار الحديث البهائية وقد ولي مشيختها السيد الشريف شمس الدين أبو المحاسن أو أبو عبد الله الحسيني الدمشقي المولود في سنة 715 وكان عالماً ومحدثاً وفقهاً، وقال الحافظ العراقي إنه شرع في شرح "سنن النسائي" ومما ألف، كتاب "اختصار الأطراف للمزي" وكتاب "رياض الزاهدين في مناقب الخلفاء الراشدين".

والمدرسة السامرية: وقد ولي مشيختها الشهاب بن قوام وقد طلب الحديث وأفتى هنالك، وكانت المدارس المشتغلة بكافة العلوم شيئاً كثيراً يخدم حاجة ذلك العصر وأهله من الراغبين في نيل العلم وقد عدد النعيمي الدمشقي في كتابه "الدارس لتاريخ المدارس"، 60 مدرسة كلها للشافعية و 52 أخرى للحنفية، وعلى سبيل التمثيل نذكر بعض مدارس الشافعية ببعض الأثر، منها المدرسة الشامية البرانية وقد درس بها القاضي شرف الدين أبو طالب عبد الله القرشي الدمشقي وبالمدرسة الرواحية والشيخ كمال الدين ابن الزملكاني وتولى تدريس الشامية البرانية بعده من مصر زين الدين ابن المرحل الشافعي⁴، والمدرسة القوصية ودرس بها شمس الدين محمد بن عيسى

¹ محمد النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ج2، ص314.

² المصدر نفسه، ص8-11-13.

³ محمد النعيمي، المصدر السابق، ص28-29.

⁴ المصدر نفسه، ص209-213، بتصرف.

المعروف بابن المجد الشافعي وكان اشتغل بفنون كثيرة ثم درس بها الإمام بهاء الدين ابن المشهد¹.

ومن مدارس الحنفية نذكر المدرسة العزية الحنفية وصاحب وقفها عز الدين أبيك المعظمي وذكر أن مندرس بها القاضي مجد الدين قاضي الطور وكذلك المدرسة العلمية والمدرسة الفتحية وهذه منشؤها الملك الغالب فتح الدين، وكان موطنها ببلاد الشام والقاهرة، بالإضافة إلى الظهور الواسع لمجموعة مجتهدين وعلماء وحفاظ أفاضوا في الساحة مع ما حصلوه من علوم كثيرة كشيخ الإسلام ابن تيمية والحافظ المزي والحافظ الإمام الذهبي والعلامة ابن القيم والحافظ ابن كثير وغيرهم، ومما ساعد على ذلك امتياز فترتهم بالحرية في منهج التفكير وجودة البحوث العلمية وغزارتها، حتى حظي العلماء بقيمة فضلى لدى العامة وعلا كعبهم في نظر الخاصة من أفراد الدولة كذلك، إذ عملوا على توجيه اهتمامهم الأكبر نحو الإمام بكتب الأقدمين والاستفادة منها بالدراسة والنقد والتخريج والموازنة بينها حيناً آخر مما كان غالبه السبر والتحقيق في كتب اللغة وعلوم الدين وفاقاً لما عهد في عصر الحافظ ابن كثير والذي هو الآخر تصدر لهذا الشأن في عمل التفسير والحديث والتاريخ والفقه وما دونه، حيث يظهر للدارس في جميع مؤلفاته - سيأتي التعريف بها لاحقاً - أثر الكم المعرفي الذي حازه والعلم الزاخر الذي شيد له مبدأً وعقيدة عز أن يطرأ عليها ما يريبها.

المبحث الثاني: حياته، شيوخه، تلامذته وآثاره العلمية.

المطلب الأول: نسبه ومولده ونشأته في طلب العلم:

نسبه: إسماعيل بن عمر بن كثير بن ضوء بن ضوء بن درع الحافظ عماد الدين أبو الفداء ابن الخطيب شهاب الدين أبي حفص القرشي البصري الدمشقي الشافعي² ولد سنة إحدى وسبعمائة وقيل بعدها بيسير بقرية "مجدل" الواقعة ببصرى في بلد الشام من أب بصري وأم مجدلية، مات أبوه سنة 703 هـ فأتى إلى دمشق وله سبع سنين أي سنة 706 هـ برفقة أخيه حيث نشأ بها، وكان من بيت علم قرأ بمدارس "بصرى" ثم انتقل إلى خطابة القرية شرقيها، وقد تفقه على يد الشيخ برهان الدين الفزاري وكمال الدين ابن قاضي شعبة، ولازم الحافظ أبا الحجاج المزي وسمع عليه

¹المصدر نفسه، ص343.

²طبقات المفسرين للداودي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، ج 1، ص 111، وله ترجمة في الدارس في تاريخ المدارس، ج 1، ص 27، إنباء الغمر، لابن حجر، ج 1، ص 39، والدرر الكامنة، ج 4، ص 299، وطبقات الفقهاء الشافعيين، لابن قاضي شعبة، ج 3، ص 86، والتفسير والمفسرون، ج 1، ص 173.

الفصل الأول.....عصر ابن كثير وحياته

أكثر تصانيفه ثم صاهره وأقبل على علوم الدين وأخذ عن ابن تيمية وفتن به، كما أنه قرأ الأصول على الشيخ الأصفهاني وولي مشيخة أم الصالح بعد وفاة الذهبي، ومشيخة دار الحديث الأشرفية قبل أن تأخذ منه.

وذكر ابن قاضي شعبة في طبقاته¹: " أنه كانت له خصوصية بابن تيمية ، واتباع له في كثير من آرائه ، وكان يفتي برأيه في مسألة الطلاق رغم أنه شافعي المذهب وامتحن بسبب ذلك وأوذي "

أما ذلك فمرده الشخصية المستقلة التي امتلكها مع مكانة عالية من سمو الأخلاق وصحة العقيدة التي ورثها عن السلف ، بل لم يكن مقلدا وإنما مجتهدا ينظر في الأدلة ويختار أقواها حجة بعدل وإنصاف حتى احتل منزلة عالية في الحديث وعلومه والتفسير والتاريخ والفقه والفتوى وكان أوسع العلماء اطلاعا على أقوال أهل الممل والنحل وغير ذلك، وجاء ذكر العلماء له بكل تقدير وإعجاب ، قال الذهبي في " المختص " : الإمام المفتي المحدث البارع ثقة متقن محدث متقن².

وقال ابن حجر: كان لاستحضاره قوة ولتصانيفه كثرة سارت في البلاد أيام حياته، وتبع الناس منها نفع بعد وفاته³.

قال السيوطي في الطبقات: "هو العمدة في علم الحديث معرفة لصحيح الحديث وسقيمه⁴.

وقال العلامة العيني: "كان قدوة العلماء والحفاظ، وعمدة أهل المعني والألفاظ، وسمع وجمع وصنف ودرس وحدث وألف، وكان له إطلاع عظيم في الحديث والتفسير والتاريخ واشتهر بالضبط والتحرير، وانتهى إليه التاريخ والحديث والتفسير، وله مصنفات عديدة مفيدة⁵.

وقال ابن حبيب: إمام روى التسبيح والتهليل وزعيم أرباب التأويل جمع وصنف وحدث ورأس العلم في التاريخ والحديث والتفسير وهو القائل:

تمر بنا الأيام تترى وإنما... نساق إلى الآجال والعين تنتظر
فلا عائد ذاك الشباب الذي مضى ... ولا زائل هذا المشيب المكدر⁶.

¹ ابن قاضي شعبة، طبقات الشافعية، دار عالم الكتب، بيروت، ط1، 1987، ج 3، ص 86.

² جلال الدين السيوطي، طبقات الحفاظ، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1983، ص 534.

³ جلال الدين السيوطي، المصدر السابق ص 534

⁴ جلال الدين السيوطي، المصدر السابق ص 534

⁵ ابن تغري البردي، النجوم الزاهرة، ج11، ص 123

⁶ ابن كثير، مقدمة طبقات الفقهاء الشافعيين، مكتبة الثقافة الدينية، بورسعيد، د ط، 1993، ص 10.

الفصل الأولعصر ابن كثير وحياته

قال الحافظ ابن حجي السعدي: "كان أحفظ من أدركناه لمتون الأحاديث وأعرفهم بتخريجها ورجالها وصحيحها وسقيمها وكان أقرانه وشيوخه يعترفون له بذلك وكان ذا معرفة كبيرة بالتفسير والتاريخ، قليل النسيان، وكان فقيها جيد الفهم صحيح الدين يحفظ التنبيه ويشارك بقوة في العربية ونظم الشعر، وقد كنت مع ترددي إليه كثير الأخذ منه"، توفي رحمه الله تعالى بعد أن كف بصره آخر عمره في شعبان سنة أربع وسبعين وسبعمائة ودفن بمقبرة الصوفية خارج باب النصر من دمشق عند شيخه ابن تيمية¹.

وقد رثاه بعض طلابه قائلا:

لفقدك طلاب العلوم تأسفوا... وجادوا بدمع لا يحيد غزير

ولو مزجوا ماء المدامع والدماء... لكان قليلا فيك يا ابن كثير²

المطلب الثاني: شيوخ ابن كثير وتلامذته:

قد أشرنا سابقا إلى أن اتجاه ابن كثير في دراسته العلمية كان منصبا على العلوم الدينية وفقه اللغة والاجتهاد في تحصيل مختلف العلوم التي كانت بادية في عصره من طرف كبار العلماء الذين عملوا على تلقينه ذلك كله، فسمع صحيح مسلم في تسعة مجالس بقراءة محمد ابن سهل بن محمد الأزدي على الشيخ نجم الدين بن العسقلاني³، وسمع الموطأ وغيره وقرأ "تهذيب الكمال" للمزي في تاريخ الرجال، وقرأ بالقراءات حتى ترجم له شمس الدين محمد بن علي بن أحمد الداودي في طبقات القراء.

والآن سنورد بيانا لبعض شيوخه الذين اشتهر أخذهم عنهم وكان لهم بالغ التأثير عليه:

- (1) منهم: العلامة برهان الدين عبد المؤمن بن خلف الدمياني المتوفى سنة 705 هـ⁴.
- (2) منهم: ابن السويدي البدر بن محمد بن إبراهيم المتوفى سنة 711 هـ⁵.
- (3) منهم: العلامة الزاهد ركن الدين أبو يحيى زكريا بن يوسف بن سليمان بن حماد البجلي الشافعي المتوفى سنة 722 هـ⁶.

¹ محمد النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ج1، ص27.

² بردي تغري، النجوم الزاهرة، ج11، ص124.

³ ابن كثير، البداية والنهاية، ج14، ص149.

⁴ ابن كثير، المصدر السابق، ج14، ص40.

⁵ ابن كثير، المصدر السابق، ج14، ص63.

⁶ ابن كثير، المصدر السابق، ج14، ص10.

الفصل الأول.....عصر ابن كثير وحياته

(4) منهم: عبد الله الزوبندي النحوي وقد اشتغل عليه الحافظ ابن كثير في النحو، توفي سنة 723 هـ¹.

(5) منهم: بهاء الدين القاسم بن عساكر، قال الحافظ ابن كثير "وقد خرج له الحافظ علم الدين البرزالي مشيخة سمعناها عليه في سنة وفاته" توفي سنة 723 هـ².

(6) ومنهم أبو نصر الشيرازي وكانت وفاته سنة 723 هـ³.

(8) منهم: كمال الدين ابن الزملكاني الشافعي توفي سنة 727 هـ.

(9) منهم: العلامة الحافظ المزي صاحب تهذيب الكمال المتوفى سنة 742، وقد صرح بأنه أخذ عنه في موضعين من كتابه "الأدب والأحكام المتعلقة بدخول الحمام"⁴، كما تخرج به .

(10) منهم: شيخ الإسلام ابن تيمية الحراني، قال ابن كثير في سنة اثنين وثمانين وستمئة "والد شيخنا العلامة العالم تقي الدين بن تيمية مفتي الفرق"⁵.

(11) منهم: صلاح الدين العلائي، قال تلميذه ابن كثير في تاريخه في سنة ثمان وعشرين وسبعمائة "وفي يوم الأربعاء ثاني المحرم درس بصاحب حلقة حمص صلاح الدين العلائي نزل له عنها شيخنا الحافظ المزي"⁶.

(12) منهم: محمود بن عبد الرحمان الأصفهاني (674 - 749)، قال النعيمي "وقرأ الأصول على الشيخ الأصفهاني"⁷.

(13) منهم إسحاق بن يحيى الأمدي شيخ دار الحديث الظاهرية المتوفى سنة 725 هـ⁸.

وذكر السيوطي في طبقاته⁹ "وأجاز له الواني، والختني" ومن جملة من تأثر بهم إلى درجة واضحة وشديدة شيخه ابن تيمية والحافظ المزي والذهبي وغيرهما من شيوخه في علم الحديث الذي برع فيه وأجاد وطبع ثقافته به.

وكان للحافظ ابن كثير مشاركة بارزة في الحياة الاجتماعية، ومرجعا كبيرا للفتوى لدى الناس الخاصة منهم والعامة، كما أنه امتلك عددا لا يحصى من طلاب

¹ ابن كثير، المصدر السابق، ج14، ص107.

² ابن كثير، المصدر السابق، ج14، ص108.

³ ابن كثير، المصدر السابق، ج14، ص109.

⁴ ص59 - 80.

⁵ محمد النعيمي، تاريخ المدارس، ج1، ص56.

⁶ محمد النعيمي، تاريخ المدارس، ج1، ص45.

⁷ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، دار ابن حزم، بيروت، ط1، 2000، ترجمة المؤلف، ص7.

⁸ ابن كثير، البداية والنهاية، ج14، ص20.

⁹ السيوطي، طبقات الحفاظ، ص534.

الفصل الأول.....عصر ابن كثير وحياته

العلم الذين تتلمذوا على يده وذلك لتوليته التدريس في عدة مدارس مختلفة كتوليته مشيخة تربة أم الصالح¹ المدرسة النجيبية، والمدرسة التنكزية التي تولاها بعد موت شيخه الذهبي²، وعين في مسجد أم صالح كأستاذ للحديث سنة 748هـ، ثم في الأشرفية³، وكان أول من خطب في جامع الفوقاني سنة 748هـ⁴، وسنسوق إليكم بعض الأسماء التي حظيت بمشيخته وفضله:

– أبو المحاسن الدمشقي الشريف محمد بن علي بن الحسن ابن حمزة بن أبي المحاسن الدمشقي، وهو المشهور بالحسيني، ولد سنة 715 هـ وتوفي في 765 هـ⁵.

– الإمام بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي صاحب "البرهان في علوم القرآن" ولد سنة 745 هـ، وتوفي سنة 794 هـ.

– أبو جعفر بن عنقة اليشكري، تلقى عن ابن كثير ومن غيره، توفي سنة 804 هـ.

– سعد الدين سعد بن يوسف بن إسماعيل النووي الشافعي، أخذ عن ابن كثير وقرأ عليه في علم الحديث كما أنه أذن له، توفي سنة 805.

– شهاب الدين أحمد بن محمد الدمشقي المعروف بالسلاوي الشافعي، سمع من ابن كثير أيضا وتوفي سنة 813 هـ

– العلامة أحمد بن علاء الدين بن حجي بن موسى بن أحمد الدمشقي الشافعي الحافظ، مؤرخ الإسلام، تخرج على الحافظ ابن كثير وابن رافع في علوم الحديث، وقد لازم الحافظ ابن كثير ست سنين واستفاد منه الكثير توفي سنة 818 هـ⁶.

– أبو زرعة العراقي أحمد بن الحسين بن عبد الرحمان العراقي الشافعي ولد سنة 762 هـ وتوفي سنة 862 هـ⁷.

– ابن الجزري المقرئ: محمد بن محمد بن علي بن يوسف، المعروف بابن الجزري، الشافعي، ولد سنة 750 هـ وسمع عن العلماء ومنهم ابن كثير، توفي سنة 833 هـ⁸.

المطلب الثالث: "آثاره العلمية"

¹ ابن كثير، البداية والنهاية، ج14، ص225.

² ابن كثير، المصدر السابق، ج14، ص133.

³ جرجي زيدان، تاريخ آداب اللغة، دار الهلال، د ط، د ت ط، ج3، ص209.

⁴ ابن كثير، البداية والنهاية، ج14، ص263.

⁵ السيوطي، طبقات الحفاظ، ص533 وتاريخ المدارس ج1 ص45

⁶ محمد النعيمي، تاريخ المدارس، ج1 ص36 – 37.

⁷ السيوطي، طبقات الحفاظ، ص543.

⁸ ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة ج1 ص453 وطبقات الحفاظ للسيوطي 543 و544. وللراغب في التعرف على المزيد منهم الرجوع إلى أنباء الغمر، والدرر الكامنة لابن حجر والضوء اللامع لسخاوي.

مما لا شك فيه أن علامتنا وشيخنا الحافظ ابن كثير كان غزير الإنتاج في مؤلفاته العلمية وتصانيفه التي تضرب في شتى فنون المعرفة من تفسير وحديث وفقه وتاريخ وغير ذلك، سوى أن مكتبة الإسلام لم تتل من كل هذه الثروة إلا الجزء الأقل وأما الجزء الآخر والأكبر فقد ظل طريقه نحوها ، وقسم آخر موجود على شكل مخطوطات في حاجة ماسة إلى دراسة وتخطيط كبيرين ، وما علينا في هذا المبحث إلا أن نعرفكم بهذه المؤلفات التي اهتدينا إليها بسبب أن المؤرخين الذين تعرضوا بالترجمة للحافظ ابن كثير كانوا قد نسبوا إليه كونها تعود بالأصل إليه ، أو فعل هو ذلك كإشارة منه إليها في بعض كتبه الموجودة عندنا بالمكتبة الإسلامية كما حصل في أثناء عمله لذلك في تفسيره للقرآن الكريم مع معظمها¹ وفيما يلي إيراد لهذه المؤلفات:

1. تفسير القرآن العظيم: وهو يعتبر من أفضل التفاسير وأهمها.

يقول الإمام السيوطي "لم يؤلف على نمطه مثله"²، وقال الزرقاني: "وتفسيره هذا من أصح التفاسير بالمأثور، إن لم يكن أصحها جميعاً"³.

كما أن الشيخ أحمد شاكر قال: "وبعد فإن تفسير الحافظ ابن كثير أحسن التفاسير التي رأينا وأجودها بعد تفسير الطبري"⁴، ومن المعروف أن هذا التفسير يحتل المرتبة الثانية بين كتب التفسير، ثم فيه تفسير القرآن بالقرآن بداية، ثم بالسنة الصحيحة عن النبي ﷺ متى اتفق للحافظ ابن كثير ذلك، ثم إنه شغله بأقوال التابعين، ومفاهيم لغة العرب مما سيبدو جلياً خلال وقوفنا على الحديث على منهجه بتوفيق من الله بعد هذا وسيظهر أن طريقته هي المثلى في التفسير على الإطلاق. جذب تفسير ابن كثير اهتمام علماء كثر بين من صححه

ومن ساعد في طبعه ومن قام باختصاره، وإليك أشهر الطباعات في ذلك:

(أ) طبعة "دار إحياء الكتب العربية" لعيسى البابي الحلبي وشركائه.

¹ سليمان بن إبراهيم اللاحم، منهج ابن كثير في التفسير، دار المسلم، ط1، 1999، ص46.

² السيوطي، طبقات الحفاظ، ص534، ط دار الكتب العلمية.

³ عبد العظيم الزرقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، 1995، ج2 ص26.

⁴ أحمد شاكر، عمدة التفسير عن الحافظ بن كثير، دار الوفاء، ط2، 2005، ج1، ص5 - 6.

الفصل الأول.....عصر ابن كثير وحياته

ب) طبعة "مطبعة الفجالة" بالقاهرة وقامت بنشرها "مكتبة النهضة الحديثة" لعبد الشكور عبد الفتاح فدا.

ج) طبعة "دار الأندلس" و "دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع" ببيرروت.
أما المختصرات فمنها:

"عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير" -اختصار وتحقيق الشيخ أحمد شاكر.

"مختصر تفسير ابن كثير" -اختصار وتحقيق محمد علي الصابوني.

"مختصر تفسير ابن كثير" -اختصار الشيخ محمد كريم سعيد راجح.

2. **البداية والنهاية¹**: وقد صدره ابن كثير بالحديث عن منهجه بأن قسمه إلى ثلاثة أقسام

شمل الأول ذكرا في بدء الخليقة وقصص الأنبياء، وأخبار الأمم الماضية ووقائع الجاهلية معتمدا على ما جاء في القرآن والسنة، ثم ما نقله المؤرخون من قبله كالطبري، مع مناقشة كافة أسانيد الأحاديث والآثار.

أما القسم الثاني ففيه ذكر لخبر دولة الإسلام طيلة حياة النبي ﷺ ثم أحوال الخلافة الراشدة فالعصر الأموي فالعصر العباسي إلى السقوط ثم دولة المماليك وإلى ما قبل وفاته رحمه الله .

وضمن في القسم الثالث وهو المسمى بالنهاية ما ورد من الأخبار في الفتن والملاحم وأشراف الساعة والقيامة والجنة والنار.

3. **مختصر علوم الحديث²**: اختصر فيه مقدمة ابن الصلاح في علوم الحديث، وقد رتبته مضيفا إليه فوائد كثيرة، شرحه الشيخ أحمد شاكر.

4. **طبقات الفقهاء الشافعيين³**.

5. **الواضح النفيس في مناقب ابن إدريس**: ذكره في كشف الظنون.

6. **تخريج أحاديث مختصر ابن الحاجب**: ذكره السيوطي في طبقات الحفاظ⁴.

7. **الأحكام الصغرى في الحديث**: ذكره حاجي خليفة.

8. **الأحكام الكبرى**: ذكره ابن كثير مرارا، في مقدمة تفسير سورة الملك، وأشار إليه في مقدمة جامع المسانيد.

9. **شرح صحيح البخاري**: أحال عليه أيضا في تفسيره، تفسير الآية 22 من سورة الأحزاب، 49 من سورة القمر، والثانية من سورة الصف.

¹شمس الدين الداودي، طبقات المفسرين، ج1، ص112.

²السيوطي، طبقات الحفاظ، ص533.

³شمس الدين الداودي، طبقات المفسرين، ج1، ص112.

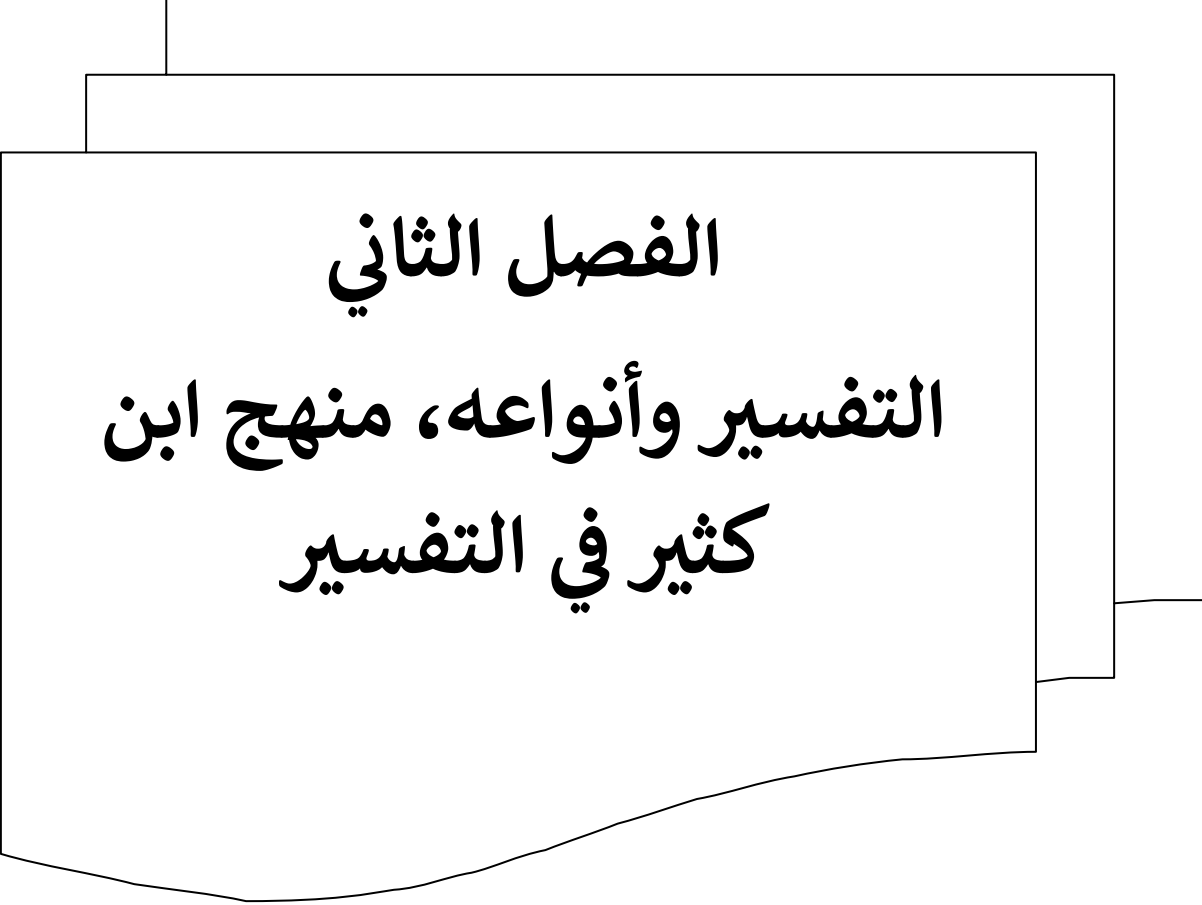
⁴السيوطي، طبقات الحفاظ، ص533.

10. التكميل في معرفة الثقات والضعفاء والمجاهيل¹: كذا ذكره ابن كثير في جامع المسانيد.
11. كتاب السيرة المطول: أحال عليه عند تفسير الآية العاشرة من سورة الجن والآية 79 من سورة الإسراء.
12. ثقب العقائد: وهو مخطوط بمكتبة جامعة الملك عبد العزيز.
13. الآداب والأحكام المتعلقة بدخول الحمام: وهو رسالة صغيرة، وموضوعه أحكام دخول الحمام وأقوال العلماء والأحاديث والآثار الواردة في ذلك.
14. كتاب في الصيام: ذكره عند تفسير الآية 184/187 من سورة البقرة.
15. مسند الشيخين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما: ذكره السيوطي في طبقات الحفاظ².

والملفت للانتباه بالنظر إلى هذا العدد من المؤلفات الخاصة بابن كثير هو إدراك ما كان لهذا العالم من باع طويل في شتى صنوف المعرفة مما أكسبه ذلك المقدرة على التدوين في كل علم من العلوم الإسلامية من تفسير وحديث وأحكام وتاريخ وأصول وعقائد، والإجادة في ذلك إجابة ميزته عن باقي علماء عصره .

¹ ابن كثير الدمشقي، جامع المسانيد والسنن، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، د ط، 1994، ج 1، ص 10.

² السيوطي، طبقات الحفاظ، ص 533.



الفصل الثاني

التفسير وأنواعه، منهج ابن كثير في التفسير

الفصل الثاني التفسير وأنواعه، منهج ابن كثير في التفسير

المبحث الأول: مفهوم التفسير وأنواعه

المطلب الأول: مفهوم التفسير

التفسير لغة واصطلاحاً :

تلتقي مادة -فسر، سَفَر - في معنى الكشف، ثم نجد السفر الكشف المادي والظاهر، والفسر الكشف المعنوي الباطن والتفصيل منه -التفسير -كشف المعنى وإبائه¹.

إذن فالنفسير مأخوذ من فسر المشتق بالاشتقاق الكبير من السفر وهو الكشف والظهور يقال أسفر الصبح إذا أضاء واتضح وأسفرت المرأة وجهها إذا كشفتها، وسفرت البيت إذا كنستته، ويقال للسفر سفر لأنه يسفر ويكشف عن أخلاق الرجال².

ف قيل اشتقاق التفسير من لفظ التفسرة وهو نظر الطبيب في البول لكشف العلة والدواء واستخراج ذلك، فكذلك المفسر ينظر في الآية لاستخراج حكمها ومعناها.

وقيل هو مأخوذ من قول العرب: فسرت الفرس وفسرته أي أجرته وأعديته إذا كان به حصر -هو احتباس الغائط ونحوه في البطن لا يخرج -ليستطلق بطنه فكذلك المفسر وكأنه يجري فرس فكره في ميادين المعاني ليستخرج الشرح المناسب للآية ويحل عُقد إشكالها³.

فعلى هذا يكون أصل التفسير التفسير على قياس صقع وصقع، وجذب وجذب وما أطيبه وأيطبه وأشباهه، ونقلوه من الثلاثي إلى باب التفعيل للمبالغة، فكأن المفسر ينتبع سورة سورة وآية آية وكلمة كلمة لاستخراج المعنى وحقيقته كشف المتعلق من المراد بلفظه، وإطلاق المحتبس عن الفهم به⁴.

أما في الاصطلاح فقد استعمل العلماء التفسير في معنيين:

الأول: التفسير الذي هو قسم من أقسام البديع الذي يعود إلى المحسنات المعنوية ويراد به عندهم أن يأتي المتكلم بمعنى لا يستقل الفهم بإدراك فحواه ما لم يقم كلام آخر على تفسيره بعده، كما هو قول الشاعر:

آرائهم ووجوههم وسيوفهم ... في الحادثات إذا دجون نجوم

¹ أحمد عمر عبد الله الغالي، التفسير بالرأي ماله وما عليه، رسالة ماجستير، 1400هـ، إشراف أبو بكر الجزائري، ص7.

² الفيروز أبادي، بصائر ذوي التمييز لطائف الكتاب العزيز، تحقيق محمود علي النجار، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، ط3، 1996، ج1، ص78 - 79، والتفسير بالرأي ماله وما عليه ص7 ومباحث في علوم القرآن ص316 لمناع القطان.

³ أحمد عمر عبد الله الغالي، المصدر السابق، ص7.

⁴ الفيروز أبادي، بصائر ذوي التمييز، ج1، ص87 - 79، والتفسير بالرأي، ص8.

الفصل الثاني التفسير وأنواعه، منهج ابن كثير في التفسير

منهم معالم للهدى ومصباح ... تجلو الدجى والأخريات رجوم

ومثل ذلك قوله تعالى: "فمنهم شقي وسعيد، فأما الذين شقوا ففي النار لهم زفير وشهيق خالدين فيها ما دامت السماوات والأرض إلا ما شاء ربك إن ربك فعال لما يريد، وأما الذين سعدوا ففي الجنة خالدين فيها ما دامت السماوات والأرض إلا ما شاء ربك عطاء غير مجذوذ"¹.

ونظيره قوله تعالى: "يوم تبيض وجوه وتسود وجوه، فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون وأما الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون"²³.

والمعنى الثاني: وهو ما نعني بالكلام فيه وللعلماء اختلاف في شرح ماهيته والسبب في ذلك هو أن التفسير لكونه يطوي في تضاعيف مسائله مسائل من علوم شتى يدخلها بعضهم ويخرجها بعضهم منه، وهي داخلة في حدود غيره من العلوم لا تكاد تجد تعريفا جامعاً لمسائله مانعاً من دخول غيره فيه ولا تكاد تدلنا على جهة واحدة تضبط مسائله إجمالاً وتتبع أقوال هؤلاء العلماء وتعريفاتهم للتفسير سنجدوها جميعاً ترجع إلى تعريف واحد فهي وإن كانت تختلف من جهة اللفظ، إلا أن الهدف منها واحد.⁴

ومن بين هذه التعريفات نجد:

قول بعض العلماء: التفسير في الاصطلاح هو علم نزول الآيات وشؤونها والأسباب النازلة فيها، ثم ترتيب مكيها ومدنيها، ومحكمها ومتشابهها وناسخها ومنسوخها وخاصها وعامها ومطلقها ومقيدها ومجملها ومفسرها وحلالها وحرامها ووعداها ووعداها وأمرها ونهيها وعبرها وأمثالها⁵.

وقال صاحب ضياء التأويل في معاني التنزيل: إن علم التفسير علم يعرف به فهم كتاب الله تعالى المنزل وبيان معانيه واستخراج أحكامه وحكمه واستمداد ذلك من علم النحو واللغة والتصريف وعلم المعاني والبيان والبديع وأصول الدين والفقه وأصول الفقه والقراءات وأسباب النزول والناسخ والمنسوخ⁶.

وقال الإمام بدر الدين الزركشي: التفسير علم يعرف به فهم كتاب الله المنزل على نبيه محمد ﷺ وبيان معانيه واستخراج أحكامه وحكمه ... واستمداد ذلك من علم

¹سورة هود 105 و108.

²آل عمران الآية 105 – 107.

³ابن علي الفضل بن حسن الطبرسي، مجمع البيان في تفسير، دار المعرفة، بيروت، ط2، 1988، ج1، ص59.

⁴أحمد عمر عبد الله الغالي، المصدر السابق، ص9.

⁵المصدر السابق ص9 والإتقان للسيوطي ج4 ص169.

⁶ضياء التأويل في معاني التنزيل ج1 ص7.

الفصل الثاني التفسير وأنواعه، منهج ابن كثير في التفسير

اللغة والنحو والتصريف وعلم البيان وأصول الفقه والقراءات ويحتاج لمعرفة أسباب النزول والناسخ والمنسوخ¹.

التأويل والفرق بينه وبين التفسير:

وبعد أن بينا معنى التفسير لغة واصطلاحاً نأتي بهذا الصدد إلى ذكر التفرقة التي يجعلها المفسرون بين كلمتي التفسير والتأويل فنقول:

التأويل في اللغة هو مصدر أول يؤول تأويلاً، وهو من آل الشيء إلى كذا أي رجع إلى، قال تعالى: "وأحسن تأويلاً"² أي جزاء، فالجزاء هو مآل أمر القوم وما صاروا إليه³ أي أن يراد من التفسير ما يحتاج منه إلى النظر والفكر ليصبح معنى الرجوع.

وأما اصطلاحاً فيراد به معنيان عند المتقدمين أحدهما تفسير الكلام وبيان معناه سواء وافق ظاهره أم لا فيكون التأويل والتفسير على هذا مترادفين.

وثانيهما هو: نفس المراد بالكلام؛ فإن كان الكلام طلباً كان تأويله نفس الفعل المطلوب، وإن كان خبراً كان تأويله نفس الشيء المخبر به، إذن فالمعنى الأول يكون التأويل فيه من باب العلم والكلام والتفسير أي منشأ التأويل فيه راجع للذهن واللفظ وأما الثاني فالتأويل فيه نفس الأمور الموجودة في الخارج ماضية كانت أو مستقبلية⁴.

وأما التأويل عند المتأخرين فهو صرف اللفظ عن الاحتمال الراجح إلى الاحتمال المرجوح، غير أن الاختلاف بين العلماء في تحديد الفرق الواقع بين لفظي التفسير والتأويل كبير جداً وقد ذكر السيوطي في كتابه الإتقان أقوالاً عدة منها:

قال أبو عبيدة وطائفة معه: "التفسير والتأويل بمعنى واحد فهما مترادفان وهذا هو الشائع عند المفسرين القدماء، وقال بعضهم التفسير ما يتعلق بالرواية والتأويل ما يتعلق بالدراية"⁵، وقال الماتوردي: "التفسير القطع على أن المراد من اللفظ هذا، والشهادة على الله أنه عني باللفظ هذا... والتأويل ترجيح أحد المحتملات بدون القطع والشهادة على الله"⁶

¹ بدر الدين الزركشي، البرهان في علوم القرآن، د م ن، د ط، د ت ن، ج 1، ص 13.

² سورة النساء الآية 59.

³ ابن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل القرآن، حققه محمود محمد شاكر، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، د ط، د ت ن، ج 8، ص 506.

⁴ أحمد عمر عبد الله الغالي، المصدر السابق، ص 14، والتفسير والمفسرون، ج 1، ص 17.

⁵ محمد حسين الذهبي، التفسير والمفسرون، مكتبة وهبة، د ط، د ت ن، ج 1، ص 17.

⁶ محمد حسين الذهبي، المرجع السابق، ج 1، ص 17.

الفصل الثاني التفسير وأنواعه، منهج ابن كثير في التفسير

أما بعد فإن المتتبع في كتب التفسير على اختلاف أزمانها وتنوع مناهجها واتجاهاتها يجد أن هناك مناهج عامة تجمع هذه المناهج والاتجاهات تنحصر في عدة أنواع من التفسير سنأتي على ذكر نوعين مهمين منها في طرحنا القادم بإذن الله.

المطلب الثاني: التفسير بالأثر

ويسمونه التفسير بالدراية وهو نوع من أنواع التفسير المعتبرة بقوة، وهو يشمل ما جاء في القرآن نفسه من البيان والتفصيل لبعض آياته، وما نقل عن الرسول صلى الله عليه وسلم وما نقل عن الصحابة رضوان الله عليهم، وما نقل عن التابعين، من كل ما فيه بيان لمراد الله تعالى من كلامه العزيز.

إلا أنه يوجد خلاف بين العلماء في تفسير هذا الجمع الأخير الذي ذكرنا أي التابعين هل هو تفسير من قبيل الأثر أم الرأي وذلك لاعتبارات عدة قامت مقام النقد لما يرويه التابعي نذكر منها:

بعده عن عهد النبوة وندرة الإسناد الصحيح في ما يرويه واشتماله على الإسرائيليات والخرافات وغلبة الظن على ما يرويه أنه من قبيل الرأي -¹ ومثال ما جاء مبيناً في القرآن قوله سبحانه: "وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر"²، فإن كلمة "من الفجر" بيان وشرح للمراد من كلمة "الخيط الأبيض" التي قبلها.

وكذلك قوله سبحانه وتعالى: "وما أدراك ما الطارق. النجم الثاقب"³ فإن كلمة "النجم الثاقب" بيان لكلمة الطارق التي قبلها، والأمثلة على هذا النحو كثيرة في كتاب الله تعالى.

ومثل ما جاء في السنة شرحاً للقرآن أنه ﷺ فسر الظلم بالشرك في قوله سبحانه: "الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم. أولئك لهم الأمن وهم مهتدون"⁴، وقال مؤيداً ذلك بقوله تعالى: "إن الشرك لظلم عظيم"⁵

أما بيان القرآن بما صح وروده عن الصحابة -رضوان الله عليهم- فقد جاء قول الحاكم في المستدرک⁶: إن تفسير الصحابي الذي شهد الوحي والتنزيل له حكم المرفوع "كذلك أطلق الحاكم. ووجهة نظره ومن وافقه، أن الصحابة رضوان الله عليهم قد شاهدوا الوحي والتنزيل، وعرفوا وعاینوا من أسباب النزول ما يكشف لهم

¹ انظر التفسير والمفسرون، لمحمد حسين الذهبي، ج1، ص112، ومناهل العرفان، ج2، ص13.

² البقرة الآية 187.

³ الطارق الآية 2 - 3.

⁴ الأنعام الآية 82.

⁵ لقمان الآية 13.

⁶ محمد حسين الذهبي، المصدر السابق، ص 20.

الفصل الثاني التفسير وأنواعه، منهج ابن كثير في التفسير

النقاب عن معاني الكتاب، ولهم من سلامة فطرتهم، وصفاء نفوسهم، وعلو كعبهم في الفصاحة والبيان، ما يمكنهم من الفهم الصحيح لكلام الله¹.
المفسرون من الصحابة

قال السيوطي في الإتقان: "واشتهر بالتفسير من الصحابة عشرة: الخلفاء الأربعة، وابن مسعود، وابن عباس، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت، وأبو موسى الأشعري، وعبد الله بن الزبير.

وقد ورد عن جماعة من الصحابة غير هؤلاء العشرة، شيء من التفسير مع قلته، ومنهم: أنس، وأبو هريرة، وابن عمر، وجابر، وعمر بن العاص، وعائشة أم المؤمنين - رضي الله عنهم أجمعين -

ضعف الرواية بالمأثور وأسبابه²:

مما وقع بعلمنا أن الرواية المأثورة، تشتمل على ما كان تفسيراً للقرآن بمثله، وما كان تفسيراً للقرآن بالسنة، وما كان تفسيراً للقرآن بالموقوف على الصحابة أو التابعين.

فأما تفسير القرآن بالقرآن وبالسنة الصحيحة فهو مما لا شك في قبوله، وأما تفسير القرآن بما يعزى إلى الصحابة والتابعين فإن الضعف خليق بالتسرب إليه من وجوه :

- 1- ما دسه أعداء الإسلام مثل زنادقة اليهود والفرس فقد أرادوا هدم الدين الإسلامي بالدس وكثرة الوضع .
- 2- ما لفته أصحاب المذاهب المتطرفة ترويجا لتطرفهم، كالشيعة مثلاً.
- 3- اختلاط الصحيح بغير الصحيح ونقل كثير من الأقوال المعزوة إلى الصحابة أو التابعين من غير إسناد ولا تحرر.
- 4- كثرة اشتغال تلك الروايات على الإسرائيليات.

تطور التفسير بالرواية بين الرواية والتدوين:

لقد كان للتفسير بالمأثور تدرج واضح في طوريه -طور الرواية وطور التدوين- والحاصل في دور الرواية أن النبي ﷺ دائماً ما كان يزيل الالتباس الذي يقع فيه الصحابة في فهم معاني القرآن ويبينه لهم، فكانوا يتناولون هذا القسم من التفسير بالرواية بعضهم لبعض، ولمن جاء بعدهم من التابعين.

¹ عبد العظيم الزرقاني، مناهل العرفان، ج2، ص13.

² المرجع السابق ج 2 ص 20.

الفصل الثاني التفسير وأنواعه، منهج ابن كثير في التفسير

ومن ثم وجد من الصحابة من قال في تفسير القرآن الكريم بما وقع لديه ثبوتاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أو يقول فيه بصرف الرأي والاجتهاد، وما كان مرد ذلك إلا للمستوى العقلي الرفيع لأهل ذلك العهد وسعة فهمهم.

وبعد فقد وجد من التابعين من تفرغ للتفسير، فروى عن النبي ﷺ وعن الصحابة، وزاد على ذلك من القول بالرأي والاجتهاد ما جلب الغموض الذي أخذ يتزايد بمجرد البعد عن عصر النبي ﷺ والصحابة¹.

أما وقد أنشأ الصحابة مدارس للتفسير في مختلف الأقطار الإسلامية التي هاجروا إليها فإن مدرسة التفسير بالأثر هي أولى مدارس التفسير ظهوراً فتتلمذ عليهم التابعون وأخذوا عنهم فهمهم وتفسيرهم فكان التابعون أعلم بتفسير القرآن المأثور عن النبي ﷺ وعن الصحابة من الذين جاءوا بعدهم².

وقد كان شأن رواية التفسير المأثور كشأن رواية الحديث حيث كان تحري الصحة والتثبت أمراً لا بد منه، وجرى ذلك إلى آخر عصر الصحابة، أما بعد هذا العصر فقد أدلف بعض الرواة في التفسير ما ليس منه تهاونا ونصرة لمذهب ما كما سنبينه في المطلب القادم بشيء من التفصيل إن شاء الله .

طور التدوين:

وهذا كان منطلقه بداية التدوين لكافة العلوم ومنها التفسير الذي هو من قبيل الأثر ولكنه لم يتخذ شكلاً منظماً ولم يفرد بالتدوين بل كان يكتب على أنه باب من أبواب الحديث المختلفة يجمعون فيه ما روي عن النبي ﷺ وعن الصحابة والتابعين. ثم بعد ذلك انفصل التفسير عن الحديث، وأفرد بتأليف خاص

، فكان أول ما عرف لنا من ذلك، تلك الصحيفة التي رواها علي بن أبي طلحة عن ابن عباس³ ثم وجد من ذلك جزء أو أجزاء دونت في التفسير خاصة، مثل ذلك الجزء المنسوب لأبي روق⁴ وتلك الأجزاء الثلاثة التي يرويها محمد بن ثور عن ابن جريج⁵، ثم دونت موسوعات في التفسير جمعت كل ما وقع لأصحابها من التفسير المروي عن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه وتابعيهم كتفسير ابن جرير الطبري، وقد اكتفوا ههنا بذكر أسانيد ما يجمعون دون أن يلتزموا بالصحيح من ذلك كله، وبعد هذا أتى أقوام دونوا التفسير المأثور بدون أن يذكرُوا أسانيدهم في ذلك، وأكثرُوا من نقل الأقوال في تفاسيرهم بدون تفرقة بين الصحيح والعليل، ثم بعد هذا

¹ محمد حسين الذهبي، التفسير والمفسرون، ج1، ص112.

² مساعد مسلم آل جعفر، مناهج المفسرين، مؤسسة دار الكتب للطباعة والنشر، ط1، 1980، ص33 - 34.

³ السيوطي، الإتيان في علوم القرآن، مطبعة مصطفى الحلبي، مصر، ط3، 1370هـ، ج2، ص88.

⁴ السيوطي، الإتيان في علوم القرآن، ج2، ص88.

⁵ السيوطي، المرجع السابق.

الفصل الثاني التفسير وأنواعه، منهج ابن كثير في التفسير

تغيرت موجات الحياة وتعدى التدوين في التفسير بالمأثور إلى تدوين التفسير بالرأي على تدرج في ذلك¹.

أهم الكتب التي دونت في التفسير بالمأثور²:

سنكتفي هنا بعرض عناوين الكتب المشهورة في التفسير بالمأثور مع ذكر مؤلفيها وهي كالآتي:

- 1-جامع البيان في تفسير القرآن لابن جرير الطبري.
 - 2-بحر العلوم لأبي الليث السمرقندي.
 - 3-الكشف والبيان عن تفسير القرآن لأبي إسحاق الثعلبي.
 - 4-معالم التنزيل لأبي محمد الحسين البغوي.
 - 5-المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لأبن عطية الأندلسي.
 - 6-تفسير القرآن العظيم لأبي الفداء الحافظ ابن كثير.
 - 7-الجواهر الحسان في تفسير القرآن لعبد الرحمان الثعالبي.
 - 8-الدر المنثور في التفسير المأثور لجلال الدين السيوطي.
- وسنأتي فيما بعد إن شاء الله على بيان موارد التفسير بالأثر.

المطلب الثالث: التفسير بالرأي

حقيقة التفسير بالرأي: هذا النوع من التفسير يسمى عند بعض العلماء بالتفسير بالدراية أو التفسير بالمعقول، لأن المفسر للقرآن الكريم يعتمد فيه على اجتهاده دون الالتفات إلى ما هو مأثور ومنقول عن النبي ﷺ وصحابته، وذلك بعد معرفة المفسر لكلام العرب ونواحي القول لديهم وأسلوب تخاطبهم ومعرفته للألفاظ العربية ووجوه دلالتها، وإدراك العلوم الضرورية التي ينبغي أن يكون ملماً بها كل من أراد تفسير القرآن كالنحو والصرف وعلوم البلاغة ومعرفة أسباب النزول إلى غير ذلك من العلوم التي يحتاج إليها المفسر كما سنبينه فيما بعد في خلال حديثنا عن منهج ابن كثير في التفسير إن شاء الله .

¹ محمد حسين الذهبي، التفسير والمفسرون، ج1، ص113.

² محمد حسين الذهبي، المرجع السابق، ج2، ص147.

الفصل الثاني التفسير وأنواعه، منهج ابن كثير في التفسير

كان التدوين في التفسير في أول المطاف مقصوراً على رواية ما نقل عن سلف الأمة لا غير، ولكنه تجاوز بعد ذلك إلى طور آخر أوسع ابتدأ من العصر العباسي إلى يومنا هذا حيث اختلط فيه تدوين التفسير العقلي بالتفسير النقلى المأثور. وهنا بدأ التفسير العقلي يظهر جلياً بداية بمحاولات فهم ذاتي وترجيح لبعض الأقوال على بعض إلى أن أخذت هذه الجهود الشخصية في الازدياد متأثرة بالمعارف المختلفة والعلوم المتنوعة والآراء المتشعبة والعقائد المتباينة، فصار كل من يبرع في فن من فنون العلم يقتصر في تفسيره على الفن الذي يبرع فيه: فالنحوي همه الإعراب وذكر ما يحتمل في ذلك من أوجه، فينقل مسائل النحو وفروعه وخلافياته، كالزجاج وأبي حيان في البحر المحيط، وصاحب الفقه نراه يعنى بذكر الفروع الفقهية وسرد المذاهب الفقهية وأدلتها وذلك كابن العربي المالكي، وصاحب التاريخ يهتم بالقصص وذكر أخبار من سلف ما صح وما لا يصح كالثعلبي والخازن وصاحب العلوم العقلية نجده يعنى في تفسيره بأقوال الحكماء والفلاسفة والرد على شبههم وذلك كالفخر الرازي في تفسيره مفاتيح الغيب.

وقد استمرت هذه النزعة العلمية العقلية المذهبية، حتى إنها راجت رواجاً عظيماً في بعض العصور، وإلى عصرنا الحاضر حيث ظهرت تفسيرات يريد أصحابها من ورائها أن يحملوا آيات القرآن الكريم كل العلوم ظاهرها وباطنها في غلو يخرج بالقرآن الكريم عن مقاصده وأهدافه¹. ومما ينبغي الوقوف عنده هو أنه من غير الصائب

القول بأن تفسيراً ما قد يصح دون مجرد الرأي بعيداً عن الشواهد والدلائل، إذ أن التفسير بالمأثور هو الأصل ابتداءً إلا ما غلب عليه الاجتهاد دون ذلك دعي تفسيراً بالرأي.

موقف العلماء من التفسير بالرأي:

اختلف العلماء منذ القدم في جواز التفسير بالرأي: ففريق منهم ذهب إلى القول بعدم جوازه حتى بالنسبة لمن هو ملم بكل العلوم والأدوات التي يحتاجها في التفسير وبذلك يجب على المفسر أن يقف عند ما قد ثبت عن النبي ﷺ، وعن الذين شهدوا التنزيل من الصحابة وعن الذين أخذوا عنهم من التابعين.

وفريق آخر من العلماء أقر جوازه لمن كان له إلمام جيد بكل العلوم والأدوات التي يحتاج إليها كل مفسر.

ولكل فريق أدلة معتمدة لديه نوجزها فيما يلي:

¹ محمد حسين الذهبي، التفسير والمفسرون، ج1، ص108 - 109 بتصرف.

الفصل الثاني التفسير وأنواعه، منهج ابن كثير في التفسير

قالوا إن التفسير بالرأي قول على الله بغير علم، والقول على الله بغير علم منهى عنه وبذلك يكون التفسير بالرأي منهيا عنه أيضا. قال تعالى: "وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون"¹

قالوا إن الله تعالى قال لنبيه عليه السلام: "وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم"، وبهذا يكون البيان لرسوله عليه الصلاة والسلام، وليس لغيره شيء من البيان لمعاني القرآن.

ودليلهم من السنة ما ورد فيها من تحريم القول في القرآن بالرأي فمن ذلك ما رواه الترمذي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهم عن النبي ﷺ أنه قال: من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار.²

وقد جاء عن أبي مليكة أنه قال: سئل أبو بكر الصديق رضي الله عنه في تفسير حرف من القرآن فقال: أي أرض تقلني وأي سماء تظلني إذا قلت في القرآن برأيي أو بما لا أعلم. وغيره من الأخبار التي تدعم القول بعدم جواز التفسير بالرأي.

أما ردود المجيزين فكانت:

قالوا: أورد القرآن الكريم نصوصا كثيرة دلت في مضمونها على جواز التفسير لمن هو أهل له بالتدبر والاستنباط، ومن ذلك: قوله تعالى: "أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها"³، ومنه قوله تعالى: "ولو رده إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم"⁴.

قالوا لو كان التفسير بالرأي غير جائز ما كان الاجتهاد جائزا، ولتعطل كثير من الأحكام، وهذا باطل؛ لأن باب الاجتهاد لا يزال مفتوحا إلى يومنا هذا ولكل مجتهد فضل فيما أصاب.

قالوا إن الصحابة -رضوان الله عليهم- أفتوا في القرآن برأيهم، واختلفت فهمهم في بعض نصوصه مع العلم بأنهم لم يسمعوا كل ما قالوه عن النبي ﷺ ولو كان القول بالرأي في القرآن محظورا لكانوا قد وقعوا فيما حرم الشرع، وهذا مستبعد إن شاء الله.

¹ البقرة الآية 169.

² المباركفوري، تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذي، دار الفكر للطباعة والنشر، د ط، د ت ن، ج 8، ص 277.

³ سورة محمد، الآية 24.

⁴ سورة النساء، الآية 83.

الفصل الثاني التفسير وأنواعه، منهج ابن كثير في التفسير

كذلك فإن رسول الله دعا لابن عباس رضي الله عنهما فقال: "اللهم فقه في الدين وعلمه التأويل"¹ ومن المؤكد هنا أن القصد من التأويل هو أمر آخر غير النقل والسماع، إنه التفسير بالرأي والاجتهاد. ونسوق بعض أقوال العلماء الكبار في هذه المسألة:

ذكر ابن جرير الطبري 'ت 310هـ' في مقدمة تفسيره: "إن ما كان من تأويل أي القرآن الذي لا يدرك علمه إلا بنص بيان رسول الله ﷺ، أو بنصية الدلالة عليه فغير جائز القيل فيه برأيه"².

وقال الراغب الأصفهاني 'ت 502هـ' في مقدمة التفسير "وكلا المذهبين وقع في الغلو أو التقصير، فمن اقتصر على المنقول فقد ترك كثيرا مما يحتاج إليه، ومن أجاز لكل أحد الخوض فيه فقد عرضه للتخليط، ولم يعتبر حقيقة قوله تعالى: "ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب"^{3،4}.

أما الحافظ ابن كثير 'ت 774هـ' فيقول في مقدمة تفسيره مؤيدا لشيخه ابن تيمية في ذلك: "فأما تفسير القرآن بمجرد الرأي فحرام" وذكر قول رسول الله ﷺ "من قال في القرآن برأيه أو بما لا يعلم، فليتبوأ مقعده من النار"⁵.

والقول في ذلك: "أنه بالرغم من حجية أقوال عدم المجيزين للتفسير بالرأي، فهي لم تقم محل المناقشة والبحث، فالباحث الملتزم على إدراك منه بجواز التفسير بالرأي الفذ الصائب، لأنه ما كان ليحتمل المعنى أمر الله لنا بالتدبر والتأمل في كلامه لو لم نفسره بالاجتهاد المطلوب، ولفاتنا الكثير مما اشتمل عليه الكتاب العزيز من معارف وعلوم وآداب لازالت تظهر بعد.

أما وقد بينا موقف العلماء من جواز التفسير بالرأي، فقلنا إن فريقا منهم قال بالجواز وفريق آخر قال بعدمه، وقد سقنا أدلة كلا الفريقين فإذن ننتهي إلى القول بأن الخلاف هنا خلاف لفظي لا حقيقي، لأن التفسير بالرأي قسمان: ممدوح جائز ومذموم غير جائز، وقد بدأ التفسير بالرأي الجائز مبكرا فلم يخرج عن قانون اللغة ولا حدود الشريعة إلى أن قامت الفرق المختلفة وتفاوتت الأهواء والشيوع فاهتم كل عالم بنصرة مذهبه وعقيدته وكان القرآن هو الهدف الذي ينشدونه جميعا، فصار كل واحد منهم يخضع آيات القرآن طبق الميل مع رأيه وهواه حتى ظهر التفسير بالرأي

¹ ابن حجر العسقلاني، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، المكتبة السلفية، د ط، د ت ط، ج 1، ص 170.

² الطبري، تفسير الطبري تحقيق محمود محمد شاكر، ج 1، ص 78، دار المعارف بمصر.

³ سورة ص، الآية 29.

⁴ الراغب الأصفهاني، مقدمة جامع التفسير، تحقيق د، أحمد حسن فرحات، دار الدعوة ط 1، 1984، ص 94.

⁵ ابن كثير، مقدمة تفسير القرآن العظيم، تحقيق: محمد السلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط 1، 1997، ط 2، 1999، ج 1 ص 10.

الفصل الثاني التفسير وأنواعه، منهج ابن كثير في التفسير

المذموم واستفحل الأمر إلى الحد الذي جعل هؤلاء يخرجون تفاسير إلى الناس تروج لمذاهبهم وتعلي معتقدهم¹.

وإليك أهم كتب التفسير بالرأي:²

أهم كتب التفسير بالرأي المحمود:

- مفاتيح الغيب: للفخر الرازي، المتوفى سنة 606 هـ.
- أنوار التنزيل وأسرار التأويل: للقاضي البيضاوي، المتوفى سنة 691 هـ.
- البحر المحيط، لأبي حيان الأندلسي، المتوفى سنة 745 هـ.
- تفسير الجلالين: لجلال الدين المحلي المتوفى سنة 791 هـ، وجلال الدين السيوطي المتوفى سنة 911 هـ.

أهم كتب التفسير بالرأي المذموم:

من تفاسير المعتزلة:

- تنزيه القرآن عن المطاعن للقاضي عبد الجبار، المتوفى سنة 415 هـ.

من تفاسير الشيعة الإمامية الإثني عشرية:

- مجمع البيان لعلوم القرآن: لأبي علي الفضل بن الحسن الطبرسي المتوفى سنة 38 هـ وهو أهم كتب الشيعة وأكثرها اعتدالا.

من تفاسير الخوارج الإباضية:

- هميان الزاد إلى دار المعاد، لمحمد بن يوسف إطفيش المتوفى سنة 1332 هـ.

وسنسوق الكلام إن شاء الله في المبحث القادم عن المنهج الذي اتبعه ابن كثير في التفسير.

المطلب الرابع: ماهية التفسير الفقهي

كنا قد تحدثنا سابقا عن المفهوم العام الذي تمثله لفظة التفسير حيث بينا جانبها اللغوي ثم الاصطلاحي وعرفنا أن هذا النوع من المفاهيم هو علم قائم بحد ذاته ولديه خصائص ومراحل نشأته ورواده ونأتي الآن إلى بسط العلاقة التركيبية القائمة بين التفسير والفقه والحديث عن أبرز خصائصه ما أمكن ذلك.

¹ محمد حسين الذهبي، التفسير والمفسرون، ج1، ص188 بتصرف.

² أنظر تفصيل هذا الموضوع في المرجع السابق ج ص205.

الفصل الثاني التفسير وأنواعه، منهج ابن كثير في التفسير

التفسير الفقهي:

هو مركب من التفسير والفقه، فالتفسير هو: "علم يفهم به كتاب الله المنزل على نبيه محمد ﷺ، وبيان معانيه واستخراج أحكامه وحكمه"¹، وأما الفقه فأجمع تعريف له أنه: "العلم بالأحكام الشرعية العملية المكتسبة من أدلتها التفصيلية"² وعليه فالتفسير الفقهي أو تفسير الأحكام يراد به إذا أطلق: "التفسير الذي يجمع آيات الأحكام الشرعية من القرآن الكريم ويفسرها في كتاب مستقل، بمعنى أنه التفسير الذي يقوم على استنباط الأحكام من القرآن الكريم، واستخراج القواعد والأصول منه، وإبرازها في كتاب واحد، في محاول لاكتشاف الثروة الفقهية والتشريعية في الكتاب الكريم، ومدى حاجة العصور إلى هذه الثروة"³.

يقول ابن عاشور في مؤلفه تفسير التحرير والتنوير⁴: "وإنما يحتاج المفسر إلى مسائل الفقه، عند قصد التوسع في تفسيره، للتوسع في طرق الاستنباط وتفصيل المعاني تشريعاً وآداباً وعلومياً".

تنوع أحكام القرآن:

وأحكام القرآن هي على ثلاثة أنواع تمثل فيها الأحكام الفقهية أو العملية نوعاً واحداً، والأنواع الثلاثة هي:

- 1- الأحكام الاعتقادية، التي تشمل الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، ويسمى علم العقيدة.
 - 2- الأحكام الخلقية، وهو ما يتعلق بالجوانب التربوية من القرآن الكريم.
 - 3- الأحكام العملية، وهي التي تتعلق بما يصدر عن المكلف من أقوال وأفعال وعقود وتصرفات، وهذا النوع هو فقه القرآن وهو الذي اهتم به المفسرون ضمن ما عرف بالتفسير الفقهي، وهو يتضمن نوعين أساسيين:
 - 1- أحكام العبادات: من صلاة وصيام وزكاة وحج وغيرها...
 - 2- أحكام المعاملات: من عقود وتصرفات وعقوبات وجنایات وغيرها...⁵
- وقد اختلف العلماء في عدد آيات الأحكام والمتفق عليه بينهم أنها ستة آلاف وكسر، إلا أنهم اختلفوا في هذا الكسر، فمنهم من جعله أربع آيات، ومنهم من جعله عشر آيات، ومنهم من جعله سبع عشرة آية ومنهم من جعله سبعة وعشرين آية، ومنهم

¹ محمد حسين الذهبي، التفسير والمفسرون، ج 1 ص 13.

² الموسوعة الفقهية، إصدار وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، ط 2، 1983، طبعة ذات السلاسل، الكويت، ج 1 ص 12.

³ علي بن سليمان العبيد، تفاسير آيات الأحكام ومناهجها، دار التدمرية، ط 1، 2010، ج 1، ص 39.

⁴ الطاهر ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، د ط، 1984، ج 1، ص 26.

⁵ علي بن سليمان العبيد، تفاسير آيات الأحكام ومناهجها، ج 1، ص 37، بتصرف.

الفصل الثاني التفسير وأنواعه، منهج ابن كثير في التفسير

من جعله ستا وثلاثين آية، على أن الحلاف في ذلك يسير لا يترتب عليه زيادة في القرآن ولا نقص¹.

المراحل التي مر بها التفسير الفقهي:

مر التفسير الفقهي منذ نشأته بعدة مراحل انتهت باكتماله وهي:

1. المرحلة الأولى: عهد النبوة والصحابة والتابعين:

أنزل الله عز وجل القرآن هداية للناس وتشريعا لهم، وجعله متضمنا أحكاما فقهية تتصل بمصالح العباد في الدنيا والآخرة وكان الصحابة رضوان الله عليهم على قدر كبير من الفهم لمعاني القرآن بمقتضى سليقتهم العربية، وما أشكل عليهم من أمر رجوا في بيانه إلى رسول الله ﷺ².

وبعد وفاته ﷺ نزلت بالمسلمين حوادث جديدة كان استنباط الصحابة ومن بعدهم من التابعين مقصورا على فتوى وحوادث تحدث في وقتها، فلم يتوسعوا في تقرير المسائل والإجابة عنها دون إبداء رأيهم في مسألة حتى تحدث³.

وقد كان أكثر اعتمادهم في استنباط الأحكام الشرعية على القرآن الكريم، فإن لم يجدوا الحكم فيه نظروا في سنة رسول الله ﷺ وإن لم يجدوا فيها أيضا أعملوا رأيهم على ضوء ما فهموه من كتاب الله وسنة رسول الله، وهذا كان دأب أبو بكر الصديق وعمر من بعده وعثمان وعلي رضي الله عنهم أجمعين.

إلا أنهم كانوا يختلفون في فهم معاني بعض الآيات وبالتالي يختلفون في حكمها، ومن ذلك اختلافهم في فهم "القرء" من قوله تعالى: "والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء"⁴، حيث أفتى عبد الله بن مسعود وتبعه عمر بن الخطاب بأن المطلقة لا تخرج من عدتها إلا إذا اغتسلت من حيضتها الثالثة، وأفتى زيد بن ثابت بأنها تخرج من العدة متى دخلت في الحيضة الثالثة، ومنشأ الخلاف في ذلك: الاختلاف في فهم معنى.

"القرء"، "أهو الحيضة" كما فهمه ابن مسعود وعمر أم هو "الطهر" كما فهمه زيد بن ثابت رضوان الله عليهم⁵، ومما اختلفوا فيه من الفتاوى في هذا الدور الشيء الكثير الذي مرده طريقة كل واحد منهم في الاستنباط والفهم لآيات الأحكام بالرغم من أنهم كانوا ينشدون الحق وحده.

¹ المرجع السابق، ج1، ص45، عد إليه للاستفادة أكثر.

² المرجع السابق، ج1، ص40.

³ هلي بن سليمان العبيد، المرجع السابق، ج1، ص40.

⁴ سورة البقرة، الآية 288

⁵ محمد الخضري بك، تاريخ التشريع الإسلامي، دار الفكر، ط8، 1967، ص98 - 100.

2. المرحلة الثانية: قيام المذاهب الفقهية:

ومما كان منشأ استمرار الصحابة والتابعين في استخراج الأحكام للمسائل العارضة عليهم من كتاب الله وسنة رسوله والرأي الصحيح، فكان ذلك منهجا لمن جاء بعدهم من الفقهاء كالأئمة الأربعة الذين قاموا يدونون أحكام الشريعة مفصلة. وقد وجد للأئمة الأربعة وغيرهم أيضا حوادث جمة لم يفتى فيها بعد، فاتخذ كل إمام أصولا لاستنباط الأحكام في مذهبه، ثم يحكم بالحكم الذي يراه هو الحق، وقد يتفق الفقهاء في أحكامهم أو يختلفون وذلك حسب فهمهم للأدلة، على ألا يكون لاختلاف المذاهب أثر في كراهة أصحاب المذاهب المختلفة لبعضهم البعض وقد روي عن الشافعي أنه كان يقول "الناس في الفقه عيال على أبي حنيفة، هذا مع ما كان يبديه الشافعي من نقد لمسائل أبي حنيفة وكثيرا ما كان يثني على محمد بن الحسن وهو مناظره الكبير، وكان يقول لأحمد بن حنبل وهو تلميذه في الفقه إذا صح الحديث عندك فأعلمني به ¹" إلى غير ذلك مما يدل على روح التسامح بين أولئك الفقهاء.

3. المرحلة الثالثة: ظهور التقليد والتعصب المذهبي

ظل الأمر بعد الأئمة على اعتداله حتى ظهر من بعدهم أقوام استولت عليهم نزعة التقليد والتعصب للأئمة، واشترك العالم والعامي في ذلك، وانتقل طلاب العلم إلى تلقي كتب إمام معين ومعرفة طرق استنباطه وارتقى إلى منزلة الفقيه العالم بعد أن كانوا يشتغلون أولا بدراسة كتاب الله ورواية السنة اللذين هما أساس الاستنباط، كما أن بعضهم لم يكن يستجيز لنفسه أن يقول بخلاف ما أفتى به إمامه بل يجتهد في نشر ما كان عليه إمام المذهب من العلم الواسع والورع الصادق وحسن الاستنباط ².

وقد روي عن أبي عبد الله البوشنجي أنه قال في الإمام الشافعي:

ومن شعب الإيمان حب ابن شافع... وفرض أكيد حبه لا تطوع وإني حياتي شافعي وإن أمت... فتوصيتي بعدي بأن يتشفعوا ³.

¹ محمد الخضري بك، المرجع السابق، ص 295.

² محمد الخضري بك، المرجع السابق، ص 286.

³ الذهبي، سير أعلام النبلاء، مؤسسة الرسالة، ط 1، 1982، ج 10، ص 73.

الفصل الثاني التفسير وأنواعه، منهج ابن كثير في التفسير

وكان من حصيلة هذا التعصب أن ذهبوا يلتزمون في القرآن الدلائل المختلفة وحمل المعاني المرجوحة لتأييد آرائهم، وقد يفسر المفسر الآية حسب هواه انتصاراً لمذهبه ورأيه وكسراً لشوكة خصمه¹.

وبالرغم من شيوع هذا الغلو في التعصب للأئمة فقد وجد فقهاء أئمة أعلام وقفوا موقف الإنصاف من الأئمة يتبعون الدليل ويرجحون القول الذي يتمشى معه أياً كان قائله.

ونشأ من هذا تفسير فقهي خاص لآيات الأحكام في القرآن، يشتد التعصب المذهبي فيه أحياناً، ويخف أخرى، وتتابع هذا المنهج إلى العصر الحديث، وهذا ما نسميه بالتفسير الفقهي، ومن أشهر كتبه:

- 1 - أحكام القرآن للجصاص - مطبوع.
- 2 - أحكام القرآن للكنيا الهراس - مطبوع.
- 3 - أحكام القرآن لابن العربي - مطبوع.
- 4 - الجامع لأحكام القرآن للقرطبي - مطبوع.
- 5 - تفسير آيات الأحكام للشيخ محمد السائس - مطبوع.
- 6 - تفسير آيات الأحكام للشيخ مناع القطان - مطبوع.
- 7 - أضواء البيان للشيخ محمد الشنقيطي - مطبوع.²

¹ سليمان العبيد، تفاسير آيات الأحكام ومناهجها، ج1، ص43.

² مناع القطان، مباحث في علوم القرآن، مكتبة وهبة، القاهرة، ط7، د ن، ص365-366-367.

الفصل الثاني التفسير وأنواعه، منهج ابن كثير في التفسير

المبحث الثاني: منهجه في التفسير

المطلب الأول: تفسيره للقرآن بالمأثور: تفسير القرآن بالقرآن، تفسير القرآن بالسنة، تفسيره القرآن بأقوال الصحابة والتابعين.

التفسير بالمأثور:

قلنا سابقا بأن التفسير بالمأثور هو الذي يحوي جميع ما ورد في القرآن الكريم ذاته من بيان وتفصيل محكم من الرحمان الرحيم لبعض آياته، وأيضا هو المنقول عن الرسول ﷺ وعن الصحابة رضي الله عنهم وما نقل عن التابعين وحكينا الخلاف في نسبة تفسير هؤلاء هل إلى الأثر أم الرأي.

كما أن هذا النوع من التفسير يقع في المكان الأول ضمن مناهج التفسير الأخرى، هذا لما اشتمل عليه من سبل حسنة في فهم كلام الله تعالى فهما يصح دون ظلال أو زيغ، ومن التفسير ما أتى من طرف صحابة رسول الله الذين عاصروا نزول القرآن وهؤلاء امتلكوا فهما وعدالة حقيقيين فأخذ عنهم التابعون غالب تفسيرهم، وذلك لقرب عهدهم برسول الله.

وقد كان هذا النوع من التفاسير أول منهج عرف في التفسير واشتهر لدى الصحابة ومن جاء بعدهم من التابعين مع بعض الاجتهادات الحاصلة في هذا الباب لكنها كانت قليلة.

لقد اختار الحافظ ابن كثير منهجا تفسيريا التزم به خلال عمله على تفسير كلام الله بداية بتفسير القرآن بالقرآن، ثم مردفا إياه بالسنة، ثم بأسباب النزول وأقوال صحابة النبي العدنان، ثم بأقوال التابعين ومجتهدي الأمة من بعد، مع نصيب من الأخبار التاريخية، وكل هذا كان ذا فائدة له في توليه تفسير القرآن العظيم ببسر وتوفيق.

1 - تفسير القرآن بالقرآن: هو أصح الطرق وأفضلها لتفسير كلام الله بمثله قبل كل شيء ما

أسعف ذلك كما أنه يحرم مجاوزة هذه المرحلة إلى ما دونها قبل أن تدعوا الحاجة إلى غيره، وإلا كيف يكون تصديقنا الجازم بأن الله هو قائله وهو أدرى به والمتصرف في كل شيء يحدث بعلمه المحيط حيث يقول تعالى وقد كفل لأمته تبين

الفصل الثاني التفسير وأنواعه، منهج ابن كثير في التفسير

كلامه: " كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون " ¹، وقال تعالى: " قد فصلنا الآيات لقوم يذكرون " ².

وفي هذه الآيات وغيرها دليل جازم على توضيح الله وتفصيله للقرآن، سواء كان تفصيله بقرآن مثله أو بالسنة على لسان رسوله ﷺ، وكل من عند الله، قال تعالى: "وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى" ³.

وإذا كان القرآن فيه بيان وتفصيل لكل شيء وهذا لقوله تعالى: "ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين" ⁴.

فمن باب أولى كونه مفصلا ومبيناً في نفسه أيضاً، إما أن مجيئه حصل بالأصل كذلك ، وإما أن البعض منه موضح بعض ، وعلى أية حال نجد كلى الحالتين واقعا متصورا في القرآن لأنهما حق.

كما أن لرسول الله تفسير لبعض آيات القرآن بما أورده القرآن نفسه من آيات مبينات، ومن ذلك رواية البخاري في "كتاب التفسير" من صحيحه أن الرسول صلى الله عليه وسلم فسر مفاتيح الغيب المذكورة في قوله تعالى: "وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو" ⁵، بما جاء في آية لقمان فقال قوله تعالى: "إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غدا وما تدري نفس بأي أرض تموت إن الله عليم خبير" ⁶، ⁷ وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في مقدمة أصول التفسير ⁸ فصل عقده في أحسن طرق التفسير: كما ضمن ذلك ابن كثير في مقدمة تفسيره ⁹ "إن أصح الطرق في هذا أن يفسر القرآن بالقرآن" وهذا كان صنيع الصحابة أيضا والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين من الأئمة المفسرين.

لم يكن تفسير القرآن بالقرآن نهجا معتمدا لدى المفسرين ممن سبق ابن كثير إلى أن جاء هذا الأخير فاعتمد على تفسيره للقرآن بالقرآن معتبرا طريقته هذه أول ما يستهل به في تفسير كلام الله فقال عند تفسير قول الله تعالى: "ولقد خلقنا الإنسان من

¹سورة فصلت، الآية 3.

²سورة الأنعام، الآية 4.

³سورة النجم، الآيتين 3 – 4.

⁴سورة النحل، الآية 89.

⁵سورة الأنعام، الآية 59.

⁶سورة لقمان، الآية 34.

⁷ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ج8، ص29، باب "وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو".

⁸ص 93.

⁹ص 7.

الفصل الثاني التفسير وأنواعه، منهج ابن كثير في التفسير

صلصال من حمإ مسنون¹، أن الظاهر هو قوله تعالى: "خلق الإنسان من صلصال كالفخار وخلق الجان من مارج من نار"² وتفسير الآية بالآية أولى.

والمطلع على تفسير ابن كثير يجد فيه أوجه عديدة من أوجه تفسير القرآن بالقرآن كتفسير الموجز في موضع بما جاء مبسوطا في موضع آخر وبيان المجلد بالمبين والإيضاح بعد الإبهام وغير ذلك.

2 - **تفسير القرآن بالسنة:** بالنسبة للقرآن الكريمة فالسنة جاءت مبينة له، قال تعالى: "وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون"³، قال محمد بن إدريس الشافعي: "لم تكن السنة لتخالف كتاب الله، ولا تكون السنة إلا تبعا لكتاب الله، بمثل تنزيله، أو مبينة معنى ما أراد الله"⁴ وقد عمل الرسول صلى الله عليه وسلم على تفسير الكثير من معاني القرآن للصحابة كلما دعت الحاجة والغالب في ذلك هو توضيحه لآيات الأحكام وتقويم كل المفاهيم الخاطئة، وبالنظر إلى أهمية السنة في تفسير القرآن فقد أقرها ابن كثير في منهجه كمصدر ثان للتفسير بعد تفسير القرآن بالقرآن، نظير الصحابة في ذلك والتابعين وما رسمه شيخه ابن تيمية في مقدمته في أصول التفسير.

فناه منكبنا على ذكر الأحاديث التي تبين معنى الآية أو لديها علاقة بالآية من وجه ما معتمدا في نقلها على كتب السنة أو أن يروي عن شيوخه بالإسناد المتصل إلى النبي ﷺ وهذا ما جاء عند تفسير قوله تعالى: "إنا أوحينا إلى نوح كما أوحينا إلى نوح كما أوحينا إلى النبيين من بعده..."⁵.

فساق بعض الروايات في عدد الأنبياء عليهم السلام، منها وقال أبو يعلى حدثنا أبو الربيع حدثنا محمد بن ثابت العبدي حدثنا، حدثنا محمد بن خالد الأنصاري عن يزيد الرقاشي عن أنس قال، قال رسول الله ﷺ "كان فيمن خلا من إخواني من الأنبياء ثمانية آلاف نبي، ثم كان عيسى بن مريم، ثم كنت أنا" ثم قال ابن كثير بعد سياقه، وقد رويناه عن أنس من وجه آخر فأخبرني الحافظ أبو عبد الله الذهبي أخبرنا الفضل بن عساكر أنبأنا الإمام أبو بكر القاسم بن أبي سعيد الصفار، أخبرتنا عمه أبي عائشة ...، عن أنس ابن مالك قال، قال رسول الله ﷺ: "بعثت على إثر ثمانية آلاف نبي، منهم أربعة آلاف نبي من بني إسرائيل" وهذا غريب من هذا الوجه، وإسناده لا بأس به ورجاله كلهم معروفون إلا أحمد بن طارق هذا فإني لا أعرفه بعدالة ولا

¹سورة الحجر، الآية 26.

²سورة الرحمن، الآية 14.

³سورة النحل، الآية 44.

⁴محمد بن إدريس الشافعي، الرسالة، تحقيق/ أحمد محمد شاكر، مطبعة مصطفى البابي مصر، ط1، 1938، ص223.

⁵سورة النساء، الآيات 163 و 165.

الفصل الثاني التفسير وأنواعه، منهج ابن كثير في التفسير

جرح والله أعلم¹، وقد أورد الكثير من الأحاديث على هذا النحو ثم إن لتفسير القرآن بالسنة أوجهها متعددة أيضا كما لتفسير القرآن بالقرآن أوجهها، ومنها :

ما جاء من السنة بيانا لمجمل القرآن، ومثاله عند ابن كثير في التفسير، قال تعالى: "إن الصفا والمروة من شعائر الله"² حيث فسر هذه الآية بفعل النبي صلى الله عليه وسلم لدى قيامه بأداء مناسك الحج.

ومنها ما جاء تقييدا لبعض آيات القرآن فمن ذلك تقييد اليد في قوله تعالى: "فاقطعوا أيديهما"³.

باليمن فقد روى ابن جرير عن عبد الله بن عمرو قال سرقت امرأة حليا، فجاء الذين سرقتهم فقالوا يا رسول الله سرقتنا هذه المرأة، فقال رسول الله ﷺ: " اقطعوا يدها اليمنى"، قال الحافظ ابن كثير وهذه المرأة هي المخزومية التي سرقت، وحديثها ثابت في الصحيحين عن عائشة أن قريشا أهمهم شأن المرأة التي سرقت في عهد النبي ﷺ ... وذكر تمام الحديث برواياته⁴.

وإلى غير ذلك من مناقشة للأسانيد والمتون ببيان صحيحها وضعيفها وبيان أحوال الرواة والثقة منهم من غيره وحشد أكبر قدر ممكن من الأحاديث في كثير من المناسبات، وكذا بيان عدم التعارض والاختلاف بين آيات التنزيل وما جاء في السنة المطهرة وإليه بيان عدم اختلاف الأحاديث بعضها مع بعض ومثال هذا جمعه بين قوله تعالى "لا إكراه في الدين"⁵ وبين حديث "أسلم وإن كنت كارها"⁶ كما أنه بين بعض معاني الأحاديث ووجه الدلالة منها.

ومن خلال ما تقدم يتضح لنا مدى أهمية تفسير القرآن بالسنة وعناية ابن كثير فيه واعتماده عليه.

3 تفسير القرآن بأقوال الصحابة والتابعين:

الصحابة هم أعلم الناس بعد رسول الله ﷺ بالقرآن ومعانيه، كيف لا وهم صحبوا الرسول ﷺ ونقلوا عنه القرآن لفظا ومعنى، قال شيخ الإسلام في "مقدمة في أصول التفسير"⁷.

¹ ابن كثير، التفسير، ج 1 ص 470.

² سورة البقرة، الآية 158.

³ سورة المائدة، الآية 38.

⁴ ابن كثير، التفسير، ج 3، ص 111.

⁵ سورة البقرة، الآية 256.

⁶ ابن كثير، التفسير، ج 1، ص 683.

⁷ ص 95.

الفصل الثاني التفسير وأنواعه، منهج ابن كثير في التفسير

وحينئذ إذا لم تجد التفسير في القرآن، ولا في السنة رجعت في ذلك إلا أقوال الصحابة، فإنهم أدري بذلك لما شاهدوه من القرائن والأحوال التي اختصوا بها". وهم وإن كانوا معرضين للخطأ فاحتمال ظهوره منهم أقل من غيرهم فلهم السبق والإيمان وثناء الله عليهم.

ثم يأتي بعد ذلك تفسير التابعين الذين عاصروا الصحابة وأخذوا عنهم، قال شيخ الإسلام ابن تيمية "إذا لم تجد التفسير في القرآن، ولا في السنة، ولا وجدته عن الصحابة فقد رجع كثير من الأئمة في ذلك إلى أقوال التابعين..."¹ وقد اجتهد بالتفسير منهم سعيد بن جبير والضحاك بن مزاحم والحسن البصري ومسروق الأجدع وسعيد بن المسيب وغيرهم.

كان اهتمام ابن كثير بتفسير الصحابة والتابعين جلياً جداً وهذا عندما يتعذر عليه التفسير من القرآن والسنة فنراه ينتقل بعد ذلك إلى أقوال الصحابة ثم التابعين فيورد عند كل آية ما روي عنهم من الآثار في تفسيرها كما سنعرضه في المثال التالي، قال الله تعالى: "أولم يروا أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها"² فعند تفسيره لهذه الآية ذكر أقوالاً عدة لمن فسرها: "فعن ابن عباس أنه فسرهما بالفتوحات الإسلامية للنبي ﷺ، وقال الحسن والضحاك" هو ظهور المسلمين على المشركين" وقال عكرمة هو الموت، وفي رواية عن ابن عباس أيضاً خرابها بموت علمائها وفقهائها وأهل الخير منها"³.

كما قد عني بدراسة الآثار التي يوردها عن الصحابة والتابعين بمناقشة أسانيدها ومتونها وبيان الصحيح من الضعيف منها ومثال عن ذلك عند تفسير قوله تعالى: "ربنا أنزل علينا مائدة من السماء"⁴.

أورد فيها عدة روايات بطرق مختلفة عن مجاهد والحسن في المائدة، وهل نزلت أم لا⁵.

وقد يكتفي بذكر الأصح من الأقوال دون ذكر ما عداه وأحياناً يذكر أقوال العلماء دون ترجيح مثلما أتى عند تفسير قوله تعالى: "قالوا لولا اجتبيتها"⁶ حيث أورد في معنى هذه الآية عدة أقوال للسلف دون ترجيح بينها⁷.

¹ ابن تيمية، مقدمة في أصول التفسير، ص102.

² سورة الرعد، الآية 41.

³ ابن كثير، التفسير، ج4، ص472.

⁴ سورة المائدة، الآية 114.

⁵ ابن كثير، التفسير، ج3، ص226.

⁶ سورة الأعراف، الآية 202.

⁷ ابن كثير، التفسير، ج3، ص535.

الفصل الثاني التفسير وأنواعه، منهج ابن كثير في التفسير

وبهذا تتضح قيمة ما يرويه ابن كثير عن السلف من الصحابة والتابعين في التفسير ومناقشته لها واختياره الأصح منها والأعم بما يفيد معرفة الراجح من المرجوح حسبما تظهره قوة الأدلة لديه، والخلاصة أن تفسير ابن كثير من أحسن التفاسير بالأثر نفعا فهو تفسير كاف موجز كاف لمعرفة كل ما يتعلق بالقرآن الكريم من معني وأحكام وغيرها.

المطلب الثاني: علوم القرآن في تفسير ابن كثير "المكي والمدني وأسباب النزول والنسخ والقراءات"

بعد أن قدم ابن كثير لتفسيره بفضل التفسير وعلم القرآن ثم بطرق التفسير الصالحة وبيان أن القرآن يفسر بالقرآن ثم بالسنة ثم بأقوال الصحابة ثم بأقوال التابعين وذكره لطريقة الاستدلال بأخبار أهل الكتاب وحال ما يؤخذ منهم عقب الحافظ بشيء يسير من علوم القرآن كمعرفة المكي والمدني وأي نزل في أي منهما فساق عدة أحاديث في ذلك نذكر منها:

قول أبو عبيد القاسم بن سلام: حدثنا يزيد عن داود بن أبي هند، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: أنزل القرآن جملة واحدة إلى السماء الدنيا في ليلة القدر، ثم نزل بعد ذلك في عشرين سنة، ثم قرأ "وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا"¹ هذا إسناد صحيح²، وذكر في وجه مناسبة هذا الحديث بفضائل القرآن قوله: وأيضا في هذا الحديث بيان أنه من القرآن مكي ومنه مدني، فالمكي: ما نزل قبل الهجرة، والمدني: ما نزل بعد الهجرة، سواء كان بالمدينة أو بغيرها من أي البلاد كان، حتى ولو كان بمكة أو عرفة، قد أجمعوا على سور أنها من المكي وآخر أنها من المدني واختلفوا في آخر وأراد بعضهم ضبط ذلك بضوابط في تقييدها عسر ونظر... إلى أن قال: كما أن كل سورة فيها: "يا أيها الذين ءامنوا". فهي مدنية، وما فيه: يا أيها الناس" فيحتمل أن يكون من هذا ومن هذا، والغالب أنه مكي، وقد يكون مدنيا كما في البقرة: "يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون"³، "يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالا طيبا ولا تتبعوا خطوات الشيطان الشيطان إنه لكم عدو مبين"⁴.⁵

¹سورة الإسراء، الآية 106.

²ابن كثير، فضائل القرآن، تحقيق: أبو الحسن الحويني، مكتبة ابن تيمية للنشر، توزيع دار ماجد عسيدي، جدة،

ط1، 1416هـ، ص35.

³سورة البقرة، الآية 20.

⁴سورة البقرة، الآية 168.

⁵ابن كثير، التفسير، ج1، ص18.

الفصل الثاني التفسير وأنواعه، منهج ابن كثير في التفسير

أسباب النزول في تفسير ابن كثير:

أما تفسيره لآيات القرآن بأسباب النزول فكان له أهمية بالغة لديه وذلك راجع للنفع الكبير الذي تخلقه معرفة أسباب نزول الآيات في فهم معاني القرآن الكريم، وقد يتوقف فهم معاني بعض الآيات على معرفة سبب نزولها بدرجة أولى:

قال ابن تيمية: ومعرفة سبب النزول يعين على فهم الآية، فإن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب، ولهذا كان أصح قول الفقهاء أنه إذا لم يعرف ما نواه الحالف رجع إلى سبب يمينه وما هيجه وأثارها¹ "ولمعرفة أسباب النزول فوائد جمة منها ما ذكره الزركشي في كتابه البرهان"²: معرفة وجه الحكمة الباعثة على تشريع الحكم، ومنها تخصيص الحكم عند من يرى أن العبرة بخصوص السبب، ومنها الوقوف على المعنى ومنها أن يكون اللفظ عاما ويقوم الدليل على التخصيص ومنها إزالة الإشكال "وإلى غير ذلك.

اهتمام الحافظ ابن كثير بأسباب النزول، ومناقشة الأسانيد ومتونها: لما كان لإدراك أسباب النزول من أثر عظيم في فهم معاني آيات القرآن العظيم ومقاصد بعض الأحكام، فإن المفسرين قد منحوها عناية فضلى واعتمدوا عليها حتى تناقلها الخلف عن السلف في تفاسيرهم وكان لابن كثير نصيب من ذلك حيث اهتم بها وبسط الروايات في ذلك وناقشها حتى أوضح الراجح منها من غيره.

فعند تفسير قوله تعالى: "والذي قال لوالديه أف لكما"³ -ضعف القول الذي أفاد بأن الآية نزلت في عبد الرحمان بن أبي بكر فقال: -وهذا عام في كل من قال هذا، ومن زعم أنها نزلت في عبد الرحمان بن أبي بكر فقوله ضعيف، لأن عبد الرحمان بن أبي بكر أسلم بعد ذلك وحسن إسلامه، وكان من خيار أهل زمانه⁴.

كما أنه قام بتضعيف كل الروايات الواردة في سبب نزول قوله عز وجل: "إنما وليكم الله ورسوله والذين ءامنوا"⁵، حيث زعم أصحابها أنها كانت في حق علي ابن أبي طالب لكن ابن كثير لم يقبل شيئا منها بالكلية لضعف أسانيدها وجهالة رجالها⁶.

وقد عمل ابن كثير على التوفيق بين بعض الروايات في سبب النزول إذ نجد في تفسيره لقول الله تعالى: "يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر" إلى حد

¹ مقدمة في أصول التفسير ص 47.

² ج 1 ص 22.

³ الأحقاف الآية 17.

⁴ ابن كثير، التفسير، ج 3، ص 728.

⁵ سورة المائدة، الآية 55.

⁶ ابن كثير، التفسير، ج 3 ص 139.

الفصل الثاني التفسير وأنواعه، منهج ابن كثير في التفسير

قوله تعالى: "ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون" ¹، قال إن هذه الآيات نزلت في اليهوديين الذين زنيا وأورد طرقا عدة على نحو ما ذكر، ثم أضاف سببا آخر مرتبط بسبب نزول هذه الآيات التي خصها أيضا بالدية والقتل والقصاص، وقال بعدما أتى على بيان السبب الثاني بروايته قال: وقد روى العوفي، وعلي بن أبي طلحة الوالبي، عن ابن عباس: أن هذه الآيات نزلت في اليهوديين الذين زنيا، كما تقدمت الأحاديث بذلك، وقد يكون اجتماع هذان السببان في وقت واحد، فنزلت هذه الآيات في ذلك كله، والله أعلم ².

كما أنه يرى بأن سبب النزول توقيفي ويمكن أن نلمس ذلك في أثناء تفسيره قوله تعالى: "ولسوف يعطيك ربك فترضى" ³، وهذا بعد أن ذكر عن ابن عباس قوله في سبب النزول فقال: وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس: ومثل هذا ما يقال إلا عن توقيف ⁴.

علم الناسخ والمنسوخ:

وبه يعلم المحكوم من غيره، ومن فقد هذا الجانب أفتى بحكم منسوخ ووقع في الضلال والإضلال، ولذا نجد أن الحافظ رحمه الله كان مهتما بعلم النسخ أيضا ومن الأمثلة على أوجه تفسيره للقرآن بهذا النوع بيان نسخ آية بآية أخرى: ومن ذلك بيان نسخ قوله تعالى: "والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا وصية لأزواجهم متاعا إلى الحول" ⁵ بقوله تعالى: "والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا" ⁶ قال: قال الأكثرون هذه الآية منسوخة بالتي قبلها، وهي قوله: "يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا" ⁷.

وربما نجده قد استشهد في تفسير آية ما بقرآن منسوخ التلاوة مع بقاء الحكم على ما جاء وذلك عند تفسير قوله تعالى: "وما جعل أدعيائكم أبناءكم ذلكم قولكم بأفواهكم والله يقول الحق وهو يهدي السبيل، أدعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله" ⁸ حيث قال بصدد الحديث عن هاتين الآيتين: "وفي القرآن المنسوخ: "فإنه كفر بكم أن

¹سورة المائدة، الآية 41 - 44.

²ابن كثير، التفسير، ج3، ص119.

³سورة الضحى/ الآية 5.

⁴ابن كثير، التفسير، ج8، ص426.

⁵سورة البقرة، الآية 240.

⁶سورة البقرة، الآية 234.

⁷ابن كثير، التفسير، ج1، ص658.

⁸سورة الأحزاب، الآيتان 4 - 5.

الفصل الثاني التفسير وأنواعه، منهج ابن كثير في التفسير

ترغبوا عن آبائكم" ثم أدرج ما قد روي عن عمر أنه قال: قد كنا نقرأ: لا ترغبوا عن آبائكم فإنه كفر بكم أن ترغبوا عن آبائكم¹.

استناده إلى القراءات:

وفي هذا شهادة من ابن كثير على الأهمية البالغة التي تحتلها القراءات في تفسير القرآن الكريم إذ بمعرفة القراءة يمكن ترجيح بعض الوجوه المحتملة على بعض، وقد ذكر في رواية عن الترمذي عن مجاهد قوله: لو كنت قرأت قراءة ابن مسعود قبل أن أسأل ابن عباس ما احتجت أن أسأله عن كثير مما سألته عنه².

إلى جانب ذكره لمعانيها وإعرابها وإعطاء أمثلة في ذلك، ومن الجدير بالذكر هو أن ابن كثير لم يكن يورد في القراءات من الآية إلا ما كان متعلقاً بفهم المعنى كما قد جاء ذكره لذلك صراحة حال تفسيره قوله تعالى: "من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله عدو للكافرين"³، فيقول رحمه الله: وفي جبريل لغات لغات وقراءات، تذكر في كتب اللغة والقراءات، ولم نطول كتابنا هذا بسرد ذلك إلا أن يدور فهم المعنى عليه⁴. فهو إذن مقتصد في بذل القراءات سوى ما يحتاجه في إيضاح

إيضاح

المعنى ليجنب بذلك التطويل إلا من سبب ظاهر. كما أن من القراءات التي ذكر ما يحمل بعضها على بعض أو يفسر بعضها بعضاً وهي على قسمين بعضها يختلف عن البعض في اللفظ لكن يتفق معه في المعنى، وبعضها يشتمل على زيادة توضيح القراءة الأخرى ولهذا أمثلة في تفسير الحافظ، فمن الأول: ما ذكر عند تفسير قوله تعالى: "أو يكون لك بيت من زخرف"⁵ حيث قدم بما روي عن ابن عباس ومجاهد وقتادة أن المقصود هو الذهب، وبعد ذلك قال: وكذلك هو في قراءة ابن مسعود: "أو يكون لك بيت من ذهب"⁶.

ومثال الثاني: تفسيره للأخ والأخت في قوله تعالى: "وله أخ أو أخت"⁷ بالإخوة لأم أخذاً على القراءة الأخرى حيث قال ابن كثير: أي من أم كما في قراءة بعض السلف، منهم سعد ابن أبي وقاص⁸.

¹ ابن كثير، التفسير، ج6، ص379.

² تحفة الأحوذني شرح جامع الترمذي، ج8، ص282، أبواب التفسير.

³ سورة البقرة، الآية 98.

⁴ ابن كثير، التفسير، ج1، ص34.

⁵ سورة الإسراء، الآية 93.

⁶ ابن كثير، التفسير، ج5، ص120.

⁷ سورة النساء، الآية 12.

⁸ ابن كثير، التفسير، ج2، ص23.

الفصل الثاني التفسير وأنواعه، منهج ابن كثير في التفسير

وقد تجاوز ذلك أيضا إلى بيان المشهور من القراءات من سواه: وهذا عند تفسير قوله تعالى: "وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها"¹، وقوله: اختلف القراء في قراءة قوله "أمرن" فالمشهور قراءة التخفيف².

وإلى غير ذلك من النماذج المبينة لسبب اعتماده على القراءات في التفسير وباقي علوم القرآن التي ذكرنا.

المطلب الثالث: علوم اللغة والبلاغة في تفسير ابن كثير

لقد أورد القرآن الكريم كثيرا من الآيات الدالة على أن اللغة التي نزل بها هي لغة العرب، نذكر منها قوله تعالى: "إنا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون"³، وكذلك قوله تعالى: "قرءانا عربيا غير ذي عوج لعلهم يتقون"⁴، فالله عز وجل أنزل كتابه القرآن بلغة العرب ولسان قوم النبي ﷺ، قال تعالى: "وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم"⁵.

على أن رسالته ﷺ كانت للناس كافة، وهذا إنما يدل على كون اللغة العربية هي من أهم مصادر تفسير القرآن الكريم.

ومما كان معتبرا لدى الصحابة في التفسير رجوعهم رضوان الله عليهم في الاجتهاد إلى لغة العرب شعرا كان أو نثرا.

قال ابن عباس: "الشعر ديوان العرب، فإذا خفي عليهم الحرف من القرآن الذي أنزله الله بلغتهم رجعوا إلى ديوانهم، فالتمسوا معرفة ذلك"⁶، وقال: "ما كنت أدري ما قوله تعالى: ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين" حتى سمعت ابنة ذي يزن الحميري وهي تقول أفاتحك، يعني أقاضيك"⁷.

ومعرفة هذا الفن للمفسر ضروري فعن مجاهد قال: لا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يتكلم في كتاب الله إذا لم يكن عالما بلغات العرب⁸، ولقد ذكر العلماء العلماء بعض العلوم التي يحتاج إليها المفسر وغالبها عائد إلى اللغة العربية وعلومها:⁹

¹سورة الإسراء، الآية 16.

²ابن كثير، التفسير، ج5، ص62.

³سورة الزخرف، الآية 3.

⁴سورة الزمر، الآية 38.

⁵سورة إبراهيم، الآية 4.

⁶الزركشي، البرهان، ج1، ص294.

⁷المصدر السابق، ج1، ص293.

⁸المصدر السابق، ج1، ص292.

⁹مناخ القطان، مباحث في علوم القرآن، ص322.

الفصل الثاني التفسير وأنواعه، منهج ابن كثير في التفسير

"الحاجة إلى اعتبار علم النحو، والتصريف الذي تعرف به الأبنية، والكلمة المبهمة يتضح معناها بمصادرهما ومشتقاتها، وخواص تركيب الكلام من جهة إفادتها المعنى، ومن حيث اختلافها بحسب وضوح الدلالة وخفائها، ثم من ناحية وجوه تحسين الكلام -وهي علوم البلاغة الثلاثة:

المعاني والبيان والبديع -من أعظم أركان المفسر، إذ لا بد له من مراعاة ما يقتضيه الإعجاز، وإنما يدرك الإعجاز بهذه العلوم".

ونظرا إلى أهمية اللغة العربية واعتبارها من أهم مصادر التفسير فإننا نجد الحافظ ابن كثير قد أولاه عناية فائقة، وذلك باعتماده عليها كثيرا في تفسيره، وعظم من شأنها في بيان معاني آيات القرآن المجمل منها والمفصل كما يظهره اهتمامه بالجوانب الآتية:

أولاً: العودة إلى اللغة بوصفها المستند الذي يحتكم إليه.

ثانياً: اهتمامه بجوانب اللغة المختلفة من نحو واشتقاق وتصريف وبلاغة ونحو ذلك.

ثالثاً: تفسيره للمفردات والمعاني المضمنة لآيات القرآن على ما تقتضيه قواعد اللغة العربية.

ويلي هذا قول شارح لهذه الجوانب:

أولاً: العودة إلى اللغة واحتكامه إليها، ويتمثل هذا بأمرين:

أ. الاستشهاد بكلام العرب شعرا ونثرا.

ب. إيراد أقوال علماء اللغة.

ج. وقولنا الاستشهاد بما روي عن العرب من الشعر فمنه القدر الوافر، ومثاله: ما جاء عند تفسيره لقول الله تعالى: "بديع السموات والأرض" ¹ وقال في كلامه عن معنى "بديع" قال: وكذلك كل محدث فعلا أو قولاً لم يتقدمه فيه متقدم، فإن العرب تسميه مبتدع، ومن ذلك قول أعشى ثعلبة في مدح هودى بن علي الحنفي:

يدعى إلى قول سادات الرجال إذا... أبداوا له الحزم أو ما شاءه ابتدعا، أي يحدث ما شاء ².

¹سورة البقرة، الآية 117.

²ابن كثير، التفسير، ج1، ص398.

الفصل الثاني التفسير وأنواعه، منهج ابن كثير في التفسير

وكذلك تفسيره قول الله تعالى: "وما يعلمان من أحد حتى يقولاً إنما نحن فتنة فلا تكفر"¹ فقد ساق الكلام عن معنى لفظة "فتنة" فقال: وأما الفتنة فهي المحنة والاختبار، ومنه قول الشاعر:

وقد فُتن الناس في دينهم... وخلقى ابن عفان شراً طويلاً².

أما استشهاد بكلام العرب مما هو نثر فهو قليل نوعاً ما، ومن أمثلته ما جاء به عند تفسير قول الله تعالى: "وحنانا من لدنا"³ حيث قال: "فالحنان هو المحبة في شفقة وميل كما تقول العرب: حنت الناقة على ولدها، وحننت المرأة على زوجها"⁴.

ب: الأمر الثاني وهو إيراد أقوال علماء اللغة واستشهاد بهما في تفسيره، نذكر من أمثلته:

تفسير قوله تعالى: "والأرض وما طحاها"⁵ قال في موطن بسط الأقوال في معنى -طحاها- وقال مجاهد، وقتادة والضحاك، والسدي والثوري وأبو صالح وابن زيد: "طحاها" بسطها، ثم قال ابن كثير وهذا أشهر الأقوال وعليه الأكثر من المفسرين وهو المعروف عند أهل اللغة، قال الجوهري: طحوته مثل دحوته أي: بسطته⁶.

مناقشة ابن كثير لبعض أقوال أهل اللغة: ومن ذلك ما جاء في عمله على تفسير قوله تعالى: "ماء ثجاجاً"⁷، قال: وقال مجاهد، وقتادة، والربيع بن أنس، "ثجاجاً" منصبا، قال الثوري: متتابعاً وقال ابن زيد كثيراً.

قال ابن جرير ولا يعرف في كلام العرب في صفة الكثرة الفج، وإنما الثج، الصب المتتابع، ومنه قول النبي ﷺ: أفضل الحج العج والثج" يعني صب دماء البدن، قال ابن كثير قلت: وفي حديث المستحاضة حين قال لها رسول الله عليه الصلاة والسلام "أنعت لك الكرْسُفُ" -يعني: أن تحتشي بالقطن- قالت يا رسول الله، هو أكثر من ذلك، إنما أثج ثجا.

وهذا دليل على استعمال الثج في الصب المتتابع الكثير، والله أعلم⁸.

¹سورة البقرة، الآية 102.

²ابن كثير، التفسير، ج1، ص363.

³سورة مريم، الآية 13.

⁴ابن كثير، التفسير، ج5، ص217.

⁵سورة الشمس، الآية 6.

⁶ابن كثير، التفسير، ج8، ص411.

⁷سورة النبأ، الآية 14.

⁸ابن كثير، التفسير، ج8، ص304.

الفصل الثاني التفسير وأنواعه، منهج ابن كثير في التفسير

ثانياً: الاهتمام بجوانب اللغة المختلفة من نحو واشتقاق وتصريف وبلاغة وغير ذلك: فمن أمثلة اهتمامه بالنحو نذكر ما جاء عند تفسير قوله تعالى: "فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام"¹.

قال: إنما صرف "عرفات" وإن كان علماً على مؤنث، لأنه في الأصل جمع كمسلمات ومؤمنات؛ سمي به بقعة معينة، فروعياً فيه الأصل، فصرف. اختاره ابن جرير.²

وقد يبين الإعراب على كثير من القراءات ومن أمثلة هذا: ما جاء عند قوله تعالى: "وما أدراك ما العقبة"³ - قال: قرئ "فك رقبة" بالإضافة وقرئ على أنه فعل، وفيه ضمير الفاعل والرقبة مفعوله.⁴

وقد يناقش بعض الأقوال النحوية فيبين الراجح من غيره منها: ومن أمثلة هذا ما جاء عند تفسير قوله تعالى: فاسلكي سبل ربك ذللاً"⁵، وذكر أن المعنى هو أن تسلك تسلك الطرق التي جعلها الله مذلة أي سهلة، ثم قال: وقال قتادة، وعبد الرحمان بن زيد بن أسلم: "فاسلكي سبل ربك ذللاً"، أي مطيعة فجعله حالاً من السالكة - قال ابن زيد وهو كقول الله تعالى: "وذلكناها لهم فمناها ركوبهم ومنها ياكلون"⁶ - قال: ألا ترى أنهم ينقلون النحل من بيوته من بلد إلى بلد وهو يصحبهم - قال ابن كثير: والقول الأول أظهر، وهو أنه حال من الطريق، أي فاسلكيها مذلة لك، نص عليه مجاهد وقال ابن جرير كلا القولين صحيح.⁷

كما أتى على بيان تضعيف بعض الأقوال النحوية: في مواضع منها ما جاء عند تفسير قوله تعالى: "حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به"⁸، ففي ذلك رد على الظاهرية في إعادتهم الضمير في قوله تعالى: "إلا أن يكون ميتة أو دماً مسفوحاً أو لحم خنزير فإنه رجس أو فسقاً"⁹، على الخنزير حتى يعم جميع أجزائه، قال ابن كثير: "وهذا بعيد من حيث اللغة، فإنه لا يعود الضمير إلا إلى

¹ سورة البقرة، الآية 198.

² ابن كثير، التفسير، ج 1، ص 551.

³ سورة البلد، الآية 12.

⁴ التفسير، ج 8، ص 406.

⁵ سورة النحل، الآية 69.

⁶ سورة يس، الآية 72.

⁷ ابن كثير، التفسير، ج 5، ص 582.

⁸ سورة المائدة، الآية 3.

⁹ سورة الأنعام، الآية 145.

الفصل الثاني التفسير وأنواعه، منهج ابن كثير في التفسير

المضاف دون المضاف إليه، والأظهر أن اللحم يعم جميع الأجزاء كما هو المفهوم من لغة العرب، ومن العرف المطرد¹.

تناوله للاشتقاق والتصريف إلى حد قليل أيضا:

ومن الأمثلة على بيان اشتقاق بعض الكلمات ما ساقه عند تفسيره قول الله تعالى: "فإنه كان للأوابين غفورا"²، حيث بين أقوال السلف في معنى الأواب والأوابين، ثم قال: وقال ابن جرير:

والأولى في ذلك قول من قال: هو التائب من الذنب، الراجع عن المعصية إلى الطاعة، مما يكره الله إلى ما يحبه ويرضاه، يقول ابن كثير: وهذا الذي قاله هو الصواب، لأن الأواب مشتق من الأوب وهو الرجوع، يقال: أب فلان إذا رجع، قال الله تعالى: "إن إلينا إيابهم"³، وفي الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ كان إذا رجع من سفر قال: آيئون تائبون عائدون، لربنا حامدون⁴.

أما التصريف فما جاء عند تفسير قوله تعالى: "وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم"⁵ عظيم⁵ وأورد قول ابن جرير: وأكثر ما يقال في الشر: بلوته أبلوه بلاء وفي الخير أبلية إبلاء وبلاء⁶.

أما اهتمامه بالبلاغة فظاهر من نواح عدة منها:

أ. بيان المراد من الاستفهام.

ب. لفت النظر إلى بعض ما احتوى عليه القرآن من فنون البلاغة.

أما بيانه لمعنى الاستفهام فمثاله:

ما جاء عند تفسير قوله تعالى: "أنتخذ من دونه آلهة إن يردن الرحمان بضر"⁷، بضر⁷، حيث قال ابن كثير: استفهام إنكار وتوبيخ وتقريع⁸.

ومثال إشارته لبعض من فنون البلاغة الحاصلة في القرآن:

¹ ابن كثير، التفسير، ج 3 ص 16.

² سورة الإسراء، الآية 25.

³ سورة الغاشية، الآية 25.

⁴ ابن كثير، التفسير، ج 5، ص 68.

⁵ سورة البقرة، الآية 49.

⁶ ابن كثير، التفسير، ج 1، ص 259.

⁷ سورة يس، الآية 23.

⁸ ابن كثير، التفسير، ج 6، ص 571.

الفصل الثاني التفسير وأنواعه، منهج ابن كثير في التفسير

ما جاء عند تفسير قوله تعالى: "ولكم في القصص حياة" ¹، بأن قال: وفي الكتب المتقدمة: القتل أنفى للقتل، فجاءت هذه العبارة في القرآن أفصح، وأبلغ، وأوجز. ²

ثالثاً: تفسير مفردات الآيات ومعانيها الإجمالية حسب مقتضى اللغة العربية: وقد جعل ذلك وفق ما عهده العرب في لغتهم من المعاني اللغوية المعروفة، ووفق مدلولاتها ومصطلحاتها.

وطريقته هي أن يعتمد في بيان مفردات الآيات والألفاظ على ما ورد عن السلف في الأغلب، في حين يعبر عن المعاني الإجمالية للآيات بأسلوبه حسب الفهم الذي عقده جراء الأخذ بكلام السلف في تفسيرها جملة وتفصيلاً.

وإليك أمثلة تبين تفسيره بعض المفردات مع مقارنة ذلك بما هو مدرج في كتب اللغة:

عند تفسير قوله تعالى: "أو تسمع لهم ركزا" ³، قال وقد أورد تفسير ابن عباس، وبعض التابعين لقوله "ركزا" بالصوت -ثم قال: والركز في أصل اللغة: هو الصوت الخفي، قال الشاعر:

فتوجست ركز الأنيس فراعاها... عن ظهر غيب والأنيس سقامها ⁴

وهذا التفسير جاء موافقاً لما هو موجود في قواميس اللغة، فنجد في القاموس المحيط للفيروز آبادي بمادة "ركز" ⁵، قال: "والركز بالكسر: الصوت الخفي، والحسن".

وكتمثيل على بيانه للمعاني الإجمالية للآيات نذكر:

ما جاء عند تفسير قوله تعالى: "وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه وإن كانت كبيرة إلا على الذين هدى الله" ⁶، يقول يقول تعالى إنما شرعنا - يا محمد - التوجه أولاً إلى بيت المقدس، ثم صرفناك عنها إلى الكعبة، ليظهر حال من يتبعك ويطيعك ويستقبل معك حيثما توجهت ممن ينقلب على عقبيه، أي مرتداً عن دينه "وإن كانت كبيرة" أي: هذه الفعلة وهو صرف التوجه عن بيت المقدس إلى الكعبة، أي: وإن كان هذا الأمر عظيماً في النفوس، إلا على

¹سورة البقرة، الآية 179.

²ابن كثير، التفسير، ج1، ص492.

³سورة مريم، الآية 98.

⁴ابن كثير، التفسير، ج5، ص270.

⁵ص512.

⁶سورة البقرة، الآية 143.

الفصل الثاني التفسير وأنواعه، منهج ابن كثير في التفسير

الذين هدى الله قلوبهم وأيقنوا بتصديق الرسول، وأن كل ما جاء به فهو الحق الذي لا مرية فيه، وأن الله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، فله أن يكلف عباده بما شاء، وينسخ ما يشاء، وله الحكمة التامة والحجة البالغة في جميع ذلك، بخلاف الذين في قلوبهم مرض، فإنه كلما حدث أمر أحدث لهم شكاً، كما يحصل للذين ءامنوا إيقاناً وتصديقاً، كما قال الله تعالى: "وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيماناً فأما الذين ءامنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون، وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم"¹. وقال تعالى: "قل هو للذين ءامنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في ءاذانهم قر وهو عليهم عمية"²، وقال تعالى: "وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً"³.

ويمضي بعد ذلك في القول: ولهذا كان من ثبت على تصديق الرسول ﷺ واتباعه في ذلك، وتوجه حيث أمره الله من غير شك ولا ريب من سادات الصحابة، وقد ذهب بعضهم إلى أن السابقين الأولين من الأنصار هم الذين صلوا للقبلتين..⁴

وإلى غيره من الأمور التي تناولها ابن كثير وله علاقة باللغة وعلومها.

حسب ما تقدم ذكره في هذا الجزء فإنه قد اتضح لنا مدى أهمية اللغة وعلومها في تفسير القرآن الكريم، وهذا ما يبرر عمل الحافظ ابن كثير على منح هذا الجانب أهمية بالغة في تفسيره.

المطلب الرابع: أقوال العلماء في تفسير ابن كثير

كما أن للعلماء أقوالاً وآراء تقييمية كثيرة في شأن هذا التفسير من ثناءات تشهد بأهميته نورد بعضها منها: يقول السيوطي عنه: "هو التفسير الذي لم يؤلف على نمطه مثله"⁵.

وقال الشوكاني في البدر الطالع⁶: وله التفسير المشهور، وهو في مجلدات، وقد جمع فيه فأوعى، ونقل المذاهب والأخبار والآثار، وتكلم بأحسن كلام وأنفسه، وهو من أحسن التفاسير إن لم يكن أحسنها.

¹سورة التوبة، الآيتان 124 _ 125.

²سورة فصلت، الآية 44.

³سورة الإسراء، الآية 82.

⁴ابن كثير، التفسير، ج1، ص457-458.

⁵السيوطي، طبقات الحفاظ، ص534.

⁶الشوكاني، البدر الطالع، دار الكتاب الإسلامي، د ت ط، ج1، ص153.

الفصل الثاني التفسير وأنواعه، منهج ابن كثير في التفسير

وقال الزرقاني في مناهل العرفان¹: وتفسيره هذا من أصح التفاسير إن لم يكن أصحها جميعاً.

وقال الأستاذ أحمد شاكر في عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير²: "وبعد فإن تفسير الحافظ ابن كثير أحسن التفاسير التي رأينا، وأجودها وأدقها بعد تفسير إمام المفسرين أبي جعفر الطبري، ولسنا نوازن بينهما وبين أي تفسير آخر مما بأيدينا، فما رأينا مثلهما، ولا ما يقاربهما".

وقال الدكتور محمد حسين الذهبي في كتابه "التفسير والمفسرون"³: "تفسير ابن كثير من أشهر ما دون في التفسير بالمأثور، ويعتبر في هذه الناحية الكتاب الثاني بعد كتاب ابن جرير _ كما قال أيضاً⁴- وبالجملـة ... فإن هذا التفسير من خير كتب التفسير التفسير بالمأثور".

وقال الدكتور مساعد آل جعفر في كتابه "مناهج المفسرين"⁵: "من أجل التفاسير وأعظمها نفعا".

ويقول الشيخ مناع القطان في كتابه مباحث في علوم القرآن عند حديثه عن ابن كثير⁶ وكتابته في التفسير "تفسير القرآن العظيم" من أشهر ما دون في التفسير بالمأثور، ويأتي في المرتبة الثانية بعد كتاب ابن جرير، فهو يفسر كلام الله بالأحاديث والآثار المسندة إلى أصحابها، مع الكلام عما يحتاج إليه جرحاً وتعديلاً، وترجيح بعض الأقوال على بعض، وتضعيف بعض الروايات وتصحيح بعضها الآخر".

كما قال محققوا التفسير (طبعة دار الشعب): "وعلى الرغم مما نؤمن به من أن تفسير الطبري كان وما يزال إماماً في الفن، وأن فوائده أكبر من أن ينوه بها ويشار إليها، فإننا نرى تفسير ابن كثير هذا لا يقل عنه قيمة إن لم يتفوق عليه في نظر العامة والخاصة على السواء؛ أما العامة فلما يجدون فيه من السهولة والعذوبة والاختصار في الأسانيد، وأما الخاصة فلما يسعدون به من المناقشات المبنية على الدقة والحفظ والعلم بطرق الحديث، أضف إلى هذا ما ورد به الكتاب من المباحث الفقهية واللغوية

¹ الزرقاني، ج 2 ص 26 الناشر دار الكتاب العربي.

² ص 5-6.

³ ج 1، ص 174.

⁴ التفسير والمفسرون، ج 1، ص 176.

⁵ ص 59.

⁶ ص 355.

الفصل الثاني التفسير وأنواعه، منهج ابن كثير في التفسير

والكلامية، وما امتاز به المؤلف من نسبة ما ينقله إلى مصادره ومراجعته على كثرتها وتنوع مشاربها واتجاهاتها...¹

وهناك جملة مأخذ قد أخذت على هذا التفسير سنذكرها فيما يلي:

أولاً- الملاحظات التي لاحظها محققو طبعة دار الشعب على هذا تفسير ابن كثير واتفقوا عليها:

الملاحظة الأولى- أنه حفل بالكثير من الإسرائيليات التي لا تستند إلى نقل ولا إلى عقل، والتي هي أشبه بالخيالات والأساطير منها بالآثار والحقائق..."

من المقبول جدا التسليم بصحة هذه الملاحظة ومعقوليتها إلى حد ما، لكن موقفه تجاه الإسرائيليات بشكل خاص لا يصح تجاهله أبداً لأنه بمثابة المواقف الأشد نقداً لها بين المفسرين وبيان خطئها وخطرها، حيث كان الأبرز في هذا، والآن يعد هذا التحفظ ميزة من مميزات تفسيره بشكل أكبر، وإن كان قد فاتته بعض الشيء من ذلك في الأخير.

الملاحظة الثانية- أن المؤلف كان في عرضه للمسائل الفقهية يكثر من ذكر الآراء، ويؤيد ما يختاره منها بحشد ضخم من الأسانيد، وكثيراً ما تبذل هذه العبارة القارئ، وبدلاً من أن تحيطه بالموضوع كله فقد تنسيه الموضوع كله..."

وقد رد الدكتور سليمان بن إبراهيم اللاحم على هذا المأخذ في كتابه "منهج ابن كثير في التفسير"²: وأقول إن هذه الملاحظة وإن كان تفسير الحافظ لم يخلوا منها لكنها في بعض المواضع فقط وليست على إطلاقها، حيث لا توجد في كثير من المواضع التي تكلم فيها عن الأحكام الفقهية، كما أن الإكثار من ذكر الآراء وحشد الأسانيد لم يكن مقصوراً على الأحكام الفقهية فقط بل إن هذا مما اعتمده ابن كثير في أغلب تفسيره، وإن لم يكن ذلك يرجع إلى الأحكام وهدفه واضح في هذا.

ثانياً- ذكر أحاديث وآثار ضعيفة سنداً أو متناً، وتساهله في إثبات لفظ بعض الأحاديث أو مصدرها.

ثالثاً- ذكر الأخبار الإسرائيلية، بالرغم من اطلاعه على خطرها وعدم صحتها.

وفي الحقيقة أن هذا التفسير هو من أحسن كتب التفسير كلها، وليس هناك تفسير أقرب إلى الصحة منه إلا تفسير الإمام الطبري بالنظر إلى كون الحافظ ابن كثير المستفيد الأول من أسلوب وطريقة الإمام الطبري في تفسيره .

¹ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، مقدمة الطبعة، دار الشعب، ط1، د ت ن، ج1، ص6.

² ص426 ط دار المسلم للنشر والتوزيع.

الفصل الثالث

تطبيق منهج ابن كثير في تفسير
آيات الشهادة والإقرار

المبحث الأول: تفسير آيات الشهادة والإقرار بالأثر.

المطلب الأول: استخدام القرآن والسنة في تفسير آيات الشهادة والإقرار.

سبق أن بينا أن تفسير آيات الأحكام قد مر بعدة مراحل نشأ عنها ما يسمى بتفسير الأحكام أو التفسير الفقهي، حيث دون العلماء الكتب التي تتحدث عن آيات الأحكام في القرآن الكريم وتفسيرها، وقد تعددت هذه الكتب خلال عصور التدوين واتجهت اتجاهات مختلفة، وكنا قد بينا ذلك في ضوء المنهج الذي انتهجه ابن كثير في التفسير عموماً.

أما في هذا الجزء من البحث فسنعمد إلى مناقشة الأمر الملاحظ على ابن كثير في تفسيره "تفسير القرآن العظيم" وهو أنه غالباً ما يدخل في المناقشات الفقهية، ويذكر أقوال العلماء وأدلّتهم عندما يشرح آية من آيات الأحكام كما سنراه في أثناء تطبيق هذا المنهج على آيات الشهادة والإقرار الواردة في سورة البقرة، مع أننا نلاحظ أيضاً توسّطه في تناول هذه الأحكام الفقهية والأصولية عموماً بحدود المعقول والمقبول في تفسير القرآن، فلم يهمل الكلام على الأحكام والمقام يتطلبه، ولم يحمل النص القرآني ما لم يدل عليه، وإن كان هناك استطراد في بعض المواضع لكنه مستساغ.

من آيات الشهادة والإقرار المفسرات من قبل الحافظ ابن كثير، الواردة في سورة البقرة نذكر أولاً: تفسيره لها بالقرآن ومن ذلك ما نجده عند تفسير قوله تعالى: "وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً" ¹ بقوله تعالى: "هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس" ^{2,3}

وفي تفسيره لقوله تعالى: "ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام" ⁴ بقول الله عز وجل: "إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون" ⁵، أو بقوله تعالى: "يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله" ^{6,7}.

¹سورة البقرة، الآية 143.

²سورة الحج، الآية 78.

³ابن كثير، التفسير، ج1، ص455.

⁴سورة البقرة، الآية 204.

⁵سورة المنافقون، الآية 1.

⁶سورة النساء، الآية 108.

⁷التفسير، ج1، ص563.

وقد فسر قوله تعالى: "يا أيها الذين ءامنوا إذا تداینتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه"¹، بأن هذا إرشاد من الله تعالى لعباده المؤمنين إذا تعاملوا بمعاملات مؤجلة أن يكتبوها، ليكون ذلك أحفظ لمقدارها وميقاتها، وأضبط للشاهد فيها، ثم قال: وقد نبه على هذا في آخر الآية حيث قال: "ذلك أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى ألا ترتابوا"².

أيضا في تفسيره لقوله تعالى: "ولا يأب الشهداء إذا ما دعوا" بقوله تعالى: "ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله فليكتب". وفي تفسيره لقوله تبارك وتعالى: "ولا تكتموا الشهادة" بقوله: "ومن يكتمها فإنه آثم قلبه" أما ثانياً وهو تفسيره للقرآن بالسنة فنجد أمثلة على ذلك ومنها: تفسيره لقول الله تعالى في آية الدين من سورة البقرة في قوله: "واستشهدوا شهيدين من رجالكم"³ بقوله في معنى ذلك أن الله أمر بالإشهاد لزيادة التوثقة، ثم قال مفسراً قوله تعالى: "فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء"، وإنما أقيمت المرأتان مقام الرجل لنقصان عقل المرأة، كما قال مسلم في صحيحه، حدثنا قتيبة، حدثنا إسماعيل بن جعفر، عن عمرو بن أبي عمرو، عن المقبري، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ أنه قال: "يا معشر النساء، تصدقن وأكثرن الاستغفار، فإني رأيتكن أكثر أهل النار"

فقلت امرأة منهن جزلة: وما لنا - يا رسول الله - أكثر أهل النار؟ قال تكثرن اللعن، وتكفرن العشير، ما رأيت من ناقصات عقل ودين أغلب لدي لب منكن" قالت يا رسول الله، ما نقصان العقل والدين؟ قال: أما نقصان عقلها فشهادة امرأتين تعدل شهادة رجل، فهذا نقصان العقل، وتمكث الليالي لا تصلي، وتفطر في رمضان، فهذا نقصان الدين"⁴، كذلك نجده قد استدلل بما ثبت في صحيح مسلم والسنن في تفسير قوله تعالى: "ولا يأب الشهداء إذا ما دعوا"⁵، من طريق مالك... عن زيد ابن خالد: أن رسول الله ﷺ قال: "ألا أخبركم بخير الشهداء؟ الذي يأتي بشهادته قبل أن يسألها" تفسير قوله تعالى: "وأشهدوا إذا تبايعتم ولا يضار كاتب ولا شهيد"⁶ حيث استدلل على على داعي الأمر في الآية بحمل الجمهور له على الإرشاد والندب بحديث خزيمه بن ثابت الأنصاري، أن عمه حدثه -وهو من أصحاب النبي ﷺ- أن النبي ﷺ ابتاع فرسا من أعرابي...

¹سورة البقرة، الآية 282.

²التفسير، ج1، ص722.

³سورة البقرة، الآية 282.

⁴التفسير، ج1، ص724.

⁵سورة البقرة، الآية 282.

⁶سورة البقرة، الآية 282.

وذكر الحديث بأجمعه ثم قال: ولكن الاحتياط هو الإشهاد، لما رواه الإمامان الحافظ أبو بكر بن مردويه والحاكم في مستدركه من رواية معاذ بن معاذ العنبري عن شعبة، عن فراس، عن الشعبي، عن أبي بردة، عن أبي موسى، عن النبي ﷺ قال: "ثلاثة يدعون الله فلا يستجاب لهم: رجل له امرأة سيئة الخلق فلم يطلقها، ورجل دفع مال يتيم قبل أن يبلغ، ورجل أقرض رجلا فلم يشهد" ، ثم قال: وإنما أجمعوا على حديث على سند حديث شعبة بهذا الإشهاد: "ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين" ¹، كما أنه ذكر في تفسير قوله تعالى: "فمن شهد منكم الشهر فليصمه" ، عدة مسائل تتعلق بهذه الآية، فقال في إباحة الفطر لمن كان مقيما في أول الشهر ثم سافر في أثنائه: فإنه قد ثبتت السنة عن رسول الله ﷺ أنه خرج في شهر رمضان لغزوة الفتح، فسار حتى بلغ الكديد، ثم أفطر، وأمر الناس بالفطر، أخرجه صاحبنا الصحيح ².

وأحيانا قد نستشعر بروز شخصية ابن كثير في مناقشة الأقوال وحسن اختياراته ومدى ما كان عليه من معرفة بالأحكام الفقهية والأصولية وكمثال على هذا ما جاء عند تفسيره لقوله تعالى: "فمن شهد منكم الشهر فليصمه: هذا إيجاب حتم على من شهد استهلال الشهر، أي كان مقيما في البلد حين دخل شهر رمضان، وهو صحيح في بدنه -أن يصوم لا محالة - ³.

وذلك ما سنبرهن عليه في المطالب القادمة وذلك خلال حديثنا عن منهجه في تفسير آيات الشهادة والإقرار.

المطلب الثاني: استخدام أقوال الصحابة والتابعين في تفسير آيات الشهادة والإقرار.

الصحابة والتابعين.

كما أن الحافظ قد أدرج أقوال المجتهدين من السلف من الصحابة والتابعين ومناقشته لها في كثير من المواضع وكذلك سرده لأقوال غيرهم من الفقهاء، واهتمامه بذكر المذاهب الأربعة وبخاصة المذهب الشافعي، فأما استناده إلى أقوال الصحابة والتابعين في تفسير آيات الشهادة والإقرار فيتضح من خلال: ما جاء عند تفسير قوله تعالى: "ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله وما الله بغافل عما تعملون" ⁴، حيث قال، قال الحسن البصري: كانوا يقرؤون في كتاب الله الذي أتاهم: إن الدين عند الله الإسلام، وإن محمدا رسول الله، وإن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا براء من اليهودية والنصرانية، فشهد الله بذلك، وأقروا به

¹ ابن كثير، التفسير، ج1، ص726.

² ابن كثير، التفسير، ج1، ص503.

³ ابن كثير، التفسير، ج1، ص503.

⁴ سورة البقرة، الآية 140.

على أنفسهم لله، فكتموا شهادة الله عندهم من ذلك¹، وقال في تفسيره لقول الله تعالى: "ويشهد على ما في قلبه"²، ومعناه: أنه يظهر للناس الإسلام ويبارز الله على ما في قلبه من الكفر والنفاق، هذا معنى ما رواه ابن إسحاق، عن محمد بن أبي محمد، عن عكرمة، عن سعيد ابن جبير، عن ابن عباس³.

وقال في حق قوله تعالى: "وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا"⁴، بعد أن ساق العديد من التفسيرات في مدلول الآية، أن الإمام أحمد قال: حدثنا يونس بن محمد، حدثنا داود بن أبي الفرات، عن عبد الله بن بريدة، عن أبي الأسود أنه قال: أتيت المدينة فوافقتها، وقد وقع بها مرض، فهم يموتون موتا ذريعا، فجلست إلى عمر بن الخطاب، فمرت به جنازة، فأثنى على صاحبها خير، فقال وجبت وجبت، ثم مر بأخرى فأثنى عليها شر، فقال عمر: وجبت وجبت، فقال أبو الأسود: ما وجبت يا أمير المؤمنين؟ قال: قلت كما قال رسول الله ﷺ: أيما مسلم شهد له أربعة بخير أدخله الله الجنة" ، قال: فقلنا ، وثلاثة؟ قال: "وثلاثة". قال، فقلنا: واثنان؟ قال: "واثنان" ثم لم نسأله عن الواحد . وكذا رواه البخاري، والترمذي، والنسائي من حديث داود بن أبي الفرات، به⁵.

وفي قوله: "ولا ياب الشهداء إذا ما دعوا"⁶، قال، قيل: معناه: إذا دعوا للتحمل فعليهم الإجابة، وهو قول قتادة والربيع بن أنس، ثم ذكر قوله: وقال مجاهد وأبو مجلز، وغير واحد: إذا دعيت لتشهد فأنت بالخيار، وإذا شهدت فدعيت فأجب⁷.

وفسر قوله تعالى: "وأشهدوا إذا تباعتم" بأن ساق قول ابن أبي حاتم في ذلك، قال: قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زرعة، حدثني يحيى بن عبد الله بن بكير، حدثني ابن لهيعة، حدثني عطاء بن دينار، عن سعيد بن جبير في قول الله: "وأشهدوا إذا تباعتم" يعني: أشهدوا على حقكم إذا كان فيه أجل أو لم يكن، فأشهدوا على حقكم على أي حال ، قال: وروى عن جابر بن زيد، ومجاهد، وعطاء، والضحاك، نحو ذلك⁸، وذكر في تفسير قوله: "ولا يضار كاتب ولا شهيد" قيل معناه لا يضار الكاتب

¹ابن كثير، التفسير، ج1، ص451

²سورة البقرة، الآية 204

³ابن كثير، التفسير ج1 ص563

⁴سورة البقرة، الآية 143.

⁵ابن كثير، التفسير، ج1، ص456.

⁶سورة البقرة، الآية 282.

⁷ابن كثير، التفسير، ج1 ص725.

⁸ابن كثير، التفسير، ج1، ص726.

الكاتب ولا الشاهد، فيكتب هذا خلاف ما يملئ، ويشهد هذا بخلاف ما سمع أو يكتمها بالكلية، وهو قول الحسن وقتادة وغيرهما¹.

وفسر قوله تعالى: "ولا تكتموا الشهادة" بقول ابن عباس وغيره: شهادة الزور من أكبر الكبائر، وكتمانها كذلك².

المبحث الثاني: علوم القرآن وعلوم اللغة في تفسير آيات الشهادة والإقرار المطلب الأول: علوم القرآن في تفسير آيات الشهادة والإقرار "المكي والمدني، وأسباب النزول، والنسخ، والقراءات"

مما عرفناه قبل ذلك أن في القرآن ما هو مكي وما هو مدني والمكي ما تم نزوله بمكة قبل الهجرة والمدني ما نزل بالمدينة بعد ذلك ويجدر القول بأن آيات الشهادة والإقرار التي خصت بالمناقشة هنا هي في الحقيقة تابعة لسورة البقرة وفي ذلك يقول ابن كثير في بداية تفسيره تحت عنوان فضائل القرآن، وبعد أن ساق الأقوال العديدة في نسبة السور إلى مكي أو مدني قال: وقال أبو عبيد: حدثنا عبد الله بن صالح، عن معاوية بن صالح بن علي بن أبي طلحة، قال: قال نزلت بالمدينة سورة البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنفال والتوبة، والحج، والنور، والأحزاب، والذين كفروا، والفتح، والحدي د، والمجادلة والحشر، والممتحنة، والحواريون، والتغابن، و "يا أيها النبيء لم تحرم"، والفجر، و "والليل إذا يغشى" و "إنا أنزلناه في ليلة القدر" و "لم يكن الذين كفروا" و "إذا زلزلت" و "إذا جاء نصر الله" و سائر ذلك بمكة³.

وهناك أمثلة على تفسيره لآيات الشهادة والإقرار بسبب النزول أيضا ومنها ما جاء في بيان قوله تعالى: "وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا"⁴، فإنه ذكر القول: وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: يدعى نوح يوم القيامة فيقال له: هل بلغت؟ فيقول: نعم، فيدعى قومه فيقال لهم: هل بلغكم؟ فيقولون: ما أتانا من نذير وما أتانا من أحد، فيقال لنوح: من يشهد لك؟ فيقول: "محمد وأمة" قال: فذلك قوله: "وكذلك جعلناكم أمة وسطا" وبعد ذلك قال: قال الوسط: العدل فتدعون، فتشهدون له بالبلاغ، ثم أشهد عليكم⁵، وفي تفسير قوله: "وأشهدوا إذا تباعتم"⁶، حيث أورد حديث خزيمة بن ثابت الأنصاري، وقد رواه الإمام أحمد: حدثنا أبو اليمان، حدثنا شعيب، عن الزهري، حدثنا خزيمة بن عمار الأنصاري أن عمه حدثه

¹ ابن كثير، التفسير، ج1، ص 726.

² ابن كثير، التفسير، ج1، ص 728.

³ ابن كثير، التفسير، ج1، ص19، كتاب فضائل القرآن.

⁴ سورة البقرة، الآية 143.

⁵ ابن كثير، التفسير، ج1، ص455.

⁶ سورة البقرة، الآية 282.

- وهو من أصحاب النبي ﷺ - أن النبي ﷺ ابتاع فرسا من أعرابي فاستتبعه النبي ﷺ ليقتضيه ثمن فرسه، فأسرع النبي ﷺ وأبط الأعرابي، فطفق رجال يعترضون الأعرابي فيساومونه بالفرس، ولا يشعرون أن النبي ﷺ ابتاعه، حتى زاد بعضهم الأعرابي في السوم على ثمن الفرس الذي ابتاعه النبي ﷺ، فنادى الأعرابي النبي ﷺ فقال إن كنت مبتاعا هذا الفرس فابتعه وإلا بعته، فقام النبي ﷺ حين سمع نداء الأعرابي، قال: أوليس قد ابتعته منك" ، فطفق الناس يلوذون بالنبي ﷺ والأعرابي وهما يتراجعان، فطفق الأعرابي يقول: هلم شهيدا يشهد أنني بايعتك ، فمن جاء للمسلمين قال للأعرابي! ويلك إن النبي ﷺ لم يكن يقول إلا حقا ، حتى جاء خزيمة، فاستمع لمراجعة النبي ﷺ ومراجعة الأعرابي يقول: هلم شهيدا يشهد أنني بايعتك ، قال خزيمة: أنا أشهد أنك قد بايعته ، فأقبل النبي ﷺ على خزيمة فقال: بم تشهد؟ فقال: بتصديقك يا رسول الله، فجعل رسول الله ﷺ شهادة خزيمة بشهادة رجلين. وهكذا رواه أبو داود من حديث شعيب. والنسائي من رواية محمد بن الوليد الزبيري، كلاهما عن الزهري، به نحوه¹.

ومن قبيل اعتماده على النسخ والقراءات في تفسير القرآن العظيم نذكر كأمثلة عن ذلك: فمن جانب النسخ وبيان نسخ آية بأخرى ما جاء عند تفسير قوله: "فمن شهد منكم الشهر فليصمه"²، فقال: ونسخت هذه الآية الإباحة المتقدمة لمن كان صحيحا مقيما أن يفطر ويفدي بإطعام مسكين عن كل يوم، كما تقدم بيانه ، ولما حتم الصيام أعاد ذكر الرخصة للمريض والمسافر في الإفطار بشرط القضاء فقال: "ومن كان مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر" ، وقد علل ذلك بتيسير الله على عباده ورحمته بهم³، وأيضا في تفسير قوله: "وأشهدوا إذا تباعتم"⁴ ، وهذا في مسألة الإشهاد على البيع حيث قال: وقال الشعبي والحسن: هذا الأمر منسوخ بقوله: "فإن أمن بعضكم بعضا فليؤد الذي أؤتمن أمانته"، وقال في تفسير هذا المعنى الأخير، أي "فإن أمن بعضكم بعضا فليؤد الذي أؤتمن أمانته"... روى ابن أبي حاتم بإسناد جيد، عن أبي سعيد الخدري أنه قال: هذه نسخت ما قبلها⁵.

وأما استناده إلى القراءات في التفسير فالأمثلة على ذلك ما جاء في تفسيره قوله تعالى: "ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام"⁶ ، أنه قال: فقرأه ابن محيصن: "ويشهد الله" بفتح الياء وضم الجلالة "على ما في قلبه" وبعد ذلك أضاف قائلا: وقراءة الجمهور بضم الياء ونصب الجلالة "ويشهد الله على ما في قلبه"⁷. كما نجد أيضا في تفسير قوله عز وجل: "واستشهدوا شهيدين من رجالكم فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى"، فقال: "أن تضل إحداهما" يعني المرأتين إذا نسيت الشهادة "فتذكر

1 ابن كثير، التفسير، ج1، ص726.

2 سورة البقرة، الآية 185.

3 ابن كثير، التفسير، ج1، ص503.

4 سورة البقرة، الآية 282.

5 ابن كثير، التفسير، ج1، ص726.

6 سورة البقرة، الآية 202.

7 ابن كثير، التفسير، ج1، ص563.

إحداهما الأخرى" أي: يحصل لها ذكرى بما وقع به الإشهاد، ولهذا قرأ آخرون "فتذكر" بالتشديد من التكرار.¹
المطلب الثاني: علوم اللغة والبلاغة في تفسير آيات الشهادة والإقرار.

وفي هذا الجانب المعتمد في المنهج وردت أمثلة في تفسير ابن كثير لآيات القرآن التي من بينها تلك الآيات المتعلقة بالشهادة والإقرار في الإسلام ومن هذه الأمثلة:

ما يرتبط باللغة نحواً، وقد جاء عند تفسير قوله تعالى: "ويشهد الله على ما في قلبه"²، فإنه قال: فقرأه ابن محيصة: "وَيَشْهَدُ اللَّهُ"، بفتح الياء، وضم الجلالة.³

وعند تفسير قوله: "أن تضل إحداهما" بأن قال: يعني: المرأتين إذا نسيت الشهادة "فتذكر إحداهما الأخرى" أي: يحصل لها ذكرى بما وقع به الإشهاد، ولهذا قرأ آخرون "فتذكر" بالتشديد من التذكار.⁴

أما الاشتقاق فمنه ما جاء عند تفسير قوله: "وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا"⁵، قال، والوسط هاهنا: الخيار والأجود، كما يقال: قريش أوسط العرب نسبا ودارا، أي: خيرها، وكان رسول الله ﷺ وسطا في قومه، أي أشرفهم نسبا، ومنه الصلاة الوسطى، التي هي أفضل الصلوات، وهي العصر، كما ثبت في الصحاح وغيرها.⁶

وأما اعتماده على البلاغة في هذا الشأن ما جاء عند تفسير قوله تعالى: "ويشهد على ما في قلبه وهو ألد الخصام" فقال: الألد في اللغة هو الأعوج، "وتنذر به قوما لذا" أي عوجاً.⁷

وإيراد المناسبة في صلة الآية بما قبلها من قوله: "ولا يَأْبُ الشَّهَادَةُ إِذَا مَا دَعَا" بأن ذكر: وهذا كقوله: "ولا يَأْبُ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فليكتب"، ومن هاهنا أستفيد أن تحمل الشهادة فرض كفاية⁸، حيث ربط بين المعنيين في تقرير الحكم، وفي تفسير قوله تعالى: "وكذلك جعلناكم أمة وسطا" فقال: قال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي سعيد الخدري، عن النبي صلى

¹ ابن كثير، التفسير، ج 1، ص 724.

² سورة البقرة، الآية 204.

³ ابن كثير، التفسير، ج 1، ص 563.

⁴ ابن كثير، التفسير، ج 1، ص 724.

⁵ سورة البقرة، الآية 143.

⁶ ابن كثير، التفسير، ج 1، ص 454.

⁷ ابن كثير، التفسير، ج 1، ص 563.

⁸ ابن كثير، التفسير، ج 1، ص 725.

الله عليه وسلم في قوله: "وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس"، قال: -عدلا-¹.

كذلك ورد ما يوصف بالإطلاق والتقييد في اللغة لدى عرف الشرع عند تفسيره لقوله تعالى: "ممن ترضون من الشهداء" قال: فيه دلالة على اشتراط الشهود، وهذا مقيد، حكم به الشافعي على كل مطلق في القرآن، من الأمر بالإشهاد من غير اشتراط².

المبحث الثالث: استخراج الأحكام ومقارنة أقوال الفقهاء خلال تفسير آيات الشهادة والإقرار.

المطلب الأول: استخراج الأحكام خلال تفسير آيات الشهادة والإقرار.

لقد حرص الحافظ ابن كثير على بيان ما يستنبط من بعض الآيات من أحكام، ولذلك سنأتي إلى عملية استخراج الأحكام التي قد استقيناها خلال تفسير آيات الشهادة والإقرار وفق المنهج المتبع لدى الحافظ ابن كثير وهي كالتالي: أما فيما يخص تفسير قوله تعالى: "ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله"³، حيث قال: "قال الحسن البصري: كانوا يقرؤون في كتاب الله الذي أتاهم: إن الدين عند الله الإسلام، وإن محمدا رسول الله"، ويفهم من ذلك هو أن من اتبع غير الإسلام وسنة رسوله فلن يقبل منه⁴.

وقد يستطرد أحيانا في تناوله لبعض الأحكام ومثل ذلك نجده في تفسير قوله تعالى: "فمن شهد منكم الشهر فليصمه" قال ابن كثير: هذا إيجاب حتم على من شهد استهلال الشهر -أي كان مقيما في البلد حين دخل شهر رمضان، وهو صحيح في بدنه -أن يصوم لا محالة...، ولما حتم الصيام أعاد ذكر الرخصة للمريض وللمسافر في الإفطار، بشرط القضاء فقال: "ومن كان مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر"⁵، ثم إنه أضاف كلاما طويلا، وخلافا بين الفقهاء يطول ذكره وبسط مختلف المسائل الفقهية المتعلقة بالآية.

ذلك فإن العبرة بتفسير قوله: "ويشهد الله على ما في قلبه" دلت على حكم أن قول الفرد بصحة إسلامه يجب أن يلازمه الفعل القويم الحسن والشهادة لله وألا

¹ابن كثير، التفسير، ج1، ص455.

²ابن كثير، التفسير، ج1، ص724.

³سورة البقرة، الآية 140.

⁴ابن كثير، التفسير، ج1، ص451.

⁵سورة البقرة، الآية 185.

يخالف ظاهره باطنه فلذلك قال : وقيل معناه أنه إذا أظهر للناس الإسلام حلف وأشهد الله لهم: أن الذي في قلبه موافق للسانه، وهذا المعنى صحيح¹.

أيضا فهو يعلل الأحكام ويدلل عليها مثلما نلفيه عند كلامه على قوله عز وجل: "واستشهدوا شهيدين من رجالكم" قال: أمر بالإشهاد مع الكتابة لزيادة التوثقة، ثم قال بعد ذكر هذا "فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان"، وهذا إنما يكون في الأموال وما يقصد به المال، وإنما قامت المرأتان مقام الرجل لنقصان عقل المرأة، وذكر الحديث الدال على ذلك².

أما في أثناء تفسير قوله تعالى: "ممن ترضون من الشهداء" ، فقال بموجب التدليل على الحكم على ذلك: فيه دلالة على اشتراط العدالة في الشهود، وهذا مقيد حكم به الشافعي على كل مطلق في القرآن، من الأمر بالإشهاد من غير اشتراط، وقد استدل من رد المستور بهذه الآية الدالة على أن يكون الشاهد عدلا مرضيا³.

لما أنه يرجح بعض الأقوال بعد مناقشتها ويبين الصحيح من غيره، وهذا ما نجده عند تفسير قوله تعالى: "أن تضل إحداهما" ، قال: يعني المرأتين إذا نسيت الشهادة "فتذكر إحداهما الأخرى" ، أي يحصل لها ذكرى بما وقع به الإشهاد، ثم ذكر: ومن قال: إن شهادتها معها تجعلها كشهادة ذكر فقد أبعد، والصحيح الأول، والله أعلم⁴.

أما الحكم في تفسير قوله تعالى: "ولا يأب الشهداء إذا ما دعوا" فتقرر في قوله: قيل معناه إذا دعوا للتحمل فعليهم الإجابة، وهو قول قتادة والربيع بن أنس، وهذا كقوله: "ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله فليكتب"، ومن هاهنا أستفيد أن تحمل الشهادة فرض كفاية⁵.

وقال في تفسير قوله: "ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى ألا ترتابوا" أي هذا الذي أمرناكم به من الكتابة للحق إذا كان مؤجلا هو "أقسط عند الله" ، أي أعدل و"أقوم للشهادة"، أي: أثبت للشاهد إذا وضع خطه ثم رآه تذكر به الشهادة، لاحتمال أنه لو لم يكتبه أن ينساه، كما هو الواقع غالبا⁶.

¹ابن كثير، التفسير، ج1، ص563.

²ابن كثير، التفسير، ج1، ص724.

³ابن كثير، التفسير، ج1، ص725.

⁴ابن كثير، التفسير، ج1، ص725.

⁵ابن كثير، التفسير، ج1، ص725.

⁶ابن كثير، التفسير، ج1، ص725.

كذلك من الأحكام المقررة في تفسير آيات الشهادة والإقرار ما جاء في تفسير قول الله: "وأشهدوا إذا تبايعتم" حيث قال: ولكن الاحتياط هو الإشهاد¹.

والحكم في تفسير قوله تعالى: "ولا تكتموا الشهادة" جلي واضح بمعنى عدم إنكارها، ولذلك أورد قول ابن عباس وغيره: شهادة الزور من أكبر الكبائر وكتمانها كذلك، ولذلك قال: ومن يكتمها فإنه آثم قلبه².

ونخلص إلى القول بأن الحافظ ابن كثير لديه من التفسيرات الفقهية والخوض في المناقشات المتعلقة بالفقه شيء لا بأس به في تفسيره وذلك ما يعد سمة شبه أساسية بالرغم من كونها صفة غير غالبية على هذا التفسير ولكن ذلك يدل على الاطلاع الواسع الذي حظي به هذا الإمام الكبير في مختلف عقائد المذاهب وآرائهم وطرق التماسهم للأحكام من آيات القرآن الكريم بما يجلي لطالب العلم حقيقة الاجتهاد الذي أضافه الفقهاء في مجال تقرير الأحكام الشرعية بما يلقي الضوء عليه.

المطلب الثاني: مقارنة أقوال الفقهاء خلال تفسير آيات الشهادة والإقرار.

حيث نرى أن الحافظ ابن كثير أولى اهتماما لا بأس به في جانب مقارنته بين أقوال الفقهاء ومناقشة أدلتهم خلال تفسيره لآيات الشهادة والإقرار حيث أعطى لهذا الجانب حقه من غير إفراط ولا تفريط.

ونمثل لذلك بما جاء عند تفسير الآية "فمن شهد منكم الشهر فليصمه" إذ ذكر خلاف العلماء في تقرير الحكم بشيء من الاستطراد بعد ذلك قائلا : وها هنا مسائل تتعلق بهذه الآية : إحداه : أنه قد ذهب طائفة من السلف إلى أن من كان مقيما في أول الشهر ثم سافر في أثناؤه، فليس له الإفطار بعذر السفر والحالة هذه، لقوله: "فمن شهد منكم الشهر فليصمه"، وإنما يباح الإفطار لمسافر استهل الشهر وهو مسافر، وهذا القول غريب نقله أبو محمد بن حزم في كتابه المحلى، عن جماعة من الصحابة والتابعين، وفيما حكاه عنهم نظر والله أعلم، فإنه قد ثبتت السنة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه خرج في شهر رمضان لغزوة الفتح، فسار حتى بلغ الكديد، ثم أفطر وأمر الناس بالفطر. أخرجه صاحبنا الصحيح.

الثانية: ذهب آخرون من الصحابة والتابعين إلى وجوب الإفطار في السفر لقوله: "فعدة من أيام أخر، والصحيح قول الجمهور، أن الأمر في ذلك على التخيير، وليس بحتم، لأنهم كانوا يخرجون مع رسول الله ﷺ في شهر رمضان ، قال: "فمنا الصائم ومنا المفطر، فلم يعب الصائم على المفطر، ولا المفطر على الصائم"، فلو

¹ابن كثير، التفسير، ج1، ص726.

²ابن كثير، التفسير، ج1، ص728.

كان الإفطار هو الواجب لأنكر عليهم الصيام، بل الذي ثبت من فعل رسول الله ﷺ أنه كان في مثل هذه الحالة صائماً، لما ثبت في الصحيحين عن أبي الدرداء قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ في شهر رمضان في حر شديد، حتى إن كان أحداً ليضع يده على رأسه من شدة الحر، وما فينا إلا رسول الله ﷺ وعبد الله بن رواحة.

الثالثة: قالت طائفة منهم الشافعي: الصيام في السفر أفضل من الإفطار، لفعل النبي ﷺ كما تقدم، وقالت طائفة: بل الإفطار أفضل، أخذاً بالرخصة، ولما ثبت عن رسول الله ﷺ: أنه سئل عن الصوم في السفر فقال: "من أفطر فحسن ومن، صام فلا جناح عليه"، وقالت طائفة هما سواء لحديث عائشة: أن حمزة بن عمرو الأسلمي قال: يا رسول الله، إني كثير الصيام، أفأصوم في السفر؟ فقال: "إن شئت فصم، وإن شئت فافطر"، وهو في الصحيحين، وقيل إن شق الصيام بالإفطار أفضل لحديث جابر أن رسول الله ﷺ رأى رجلاً قد ظلل عليه، فقال: "ما هذا؟"، قالوا: صائم، فقال: "ليس من البر الصيام في السفر"، أخرجه البخاري ومسلم.

فأما إن رغب عن السنة، ورأى أن الفطر مكروه إليه، فهذا يتعين عليه الإفطار، ويحرم عليه الصيام، والحالة هذه، لما جاء في مسند الإمام أحمد وغيره، وعن ابن عمر وجابر، وغيرهما: من لم يقبل رخصة الله: كان عليه من الإثم مثل جبال عرفة

الرابعة: القضاء، هل يجب متتابعاً أو يجوز فيه التفريق؟، فيه قولان: أحدهما: أنه يجب التتابع، لأن القضاء يحكى الأداء، والثاني: لا يجب التتابع، بل إن شاء فرق، وإن شاء تابع وهذا قول جمهور السلف والخلف، وعليه ثبتت الدلائل، لأن التتابع إنما وجب في الشهر لضرورة أدائه في الشهر، فأما بعد انقضاء رمضان فالمراد صيام أيام عدة ما أفطر. ولهذا قال تعالى: "فعدة من أيام أخر" ثم قال "يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر"¹.

وأما في قوله تعالى: "ويشهد الله على ما في قلبه" فقال: فقرأه ابن محيصة: ويشهد الله بفتح الياء وضم الجلالة، ومعناها أن هذا وإن أظهر لكم الحيل، لكن الله يعلم من قلبه القبيح.

وقراءة الجمهور بضم الياء، ونصب الجلالة: "ويشهد الله على ما في قلبه" ومعناه أنه يظهر للناس الإسلام ويبارز الله بما في قلبه من الكفر والنفاق، وهذا معنى ما رواه ابن إسحاق، عن محمد بن أبي محمد، عن عكرمة، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس.

¹ ابن كثير، التفسير، ج1، ص503.

وقيل معناه أنه إذا أظهر للناس الإسلام حلف وأشهد الله لهم : أن الذي في قلبه موافق للسانه، وهذا المعنى صحيح، واختاره ابن جرير وعزاه إلى ابن عباس، وحكاه عن مجاهد، والله أعلم¹.

وأحيانا نراه يورد قول الشافعي وهو دائما ما يعتمد إلى فعل ذلك في مواضع عديدة في تفسيره، ومثال ذلك نجده في تفسير قوله: "ممن ترضون من الشهداء" فقال: فيه دلالة على اشتراط العدالة في الشهود، وهذا مقيد حكم به الشافعي على كل مطلق في القرآن، من الأمر بالإشهاد من غير اشتراط، وقد استدل من رد المستور بهذه الآية الدالة على أن يكون الشاهد عدلا مرضيا².

كذلك جاء في تفسير قوله تعالى: "ولا يَأْبُ الشَّهَدَاءُ إِذَا مَا دَعُوا" قال: معناه إذا دعوا للتحمل فعليهم الإجابة، وهو قول قتادة والربيع بن أنس.

وقيل -وهو مذهب الجمهور - المراد بقوله: "ولا يَأْبُ الشَّهَدَاءُ إِذَا مَا دَعُوا" للأداء، لحقيقة قوله: "الشهداء" والشاهد حقيقة فيمن تحمل، فإذا دعي لأدائها فعليها الإجابة إذا تعينت وإلا فهو فرض كفاية، والله أعلم.

وقال مجاهد وأبو مجلز، وغير واحد: إذا دعيت لتشهد فأنت بالخيار، وإذا شهدت فدعيت فأجب، ثم قال: وقد روي عن ابن عباس والحسن البصري: أنها تعم الحاليين: التحمل والأداء³.

وجاء في تفسير قوله تعالى: "وأشهدوا إذا تباعتم" فقال: عن سعيد ابن جبير قال: يعني أشهدوا على حقكم إذا كان فيه أجل أو لم يكن، فأشهدوا على حقكم على أي حال، قال وروي عن جابر بن زيد، ومجاهد، وعطاء، والضحاك نحو ذلك.

وقال الشعبي والحسن: هذا الأمر منسوخ بقوله: "فإن أمن بعضكم بعضا فليؤد الذي أؤتمن أمانته"، ثم ذكر: وهذا الأمر محمول عند الجمهور عند الجمهور على الإرشاد والندب، لا على الوجوب والدليل على ذلك حديث خزيمة بن ثابت الأنصاري، الذي رواه الإمام أحمد -تقدم معنا فيما سبق-⁴.

مما نلاحظه أخيرا هو أنه لما كان القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة هما المصدران الأساسيان في استنباط الأحكام الفقهية والقواعد التشريعية والأصولية، وأن ما من حكم في التشريع الإسلامي إلا وله دليل يستند عليه من الكتاب أو السنة،

¹ابن كثير، التفسير، ج1، ص563.

²ابن كثير، التفسير، ج1، ص725.

³ابن كثير، التفسير، ج1، ص725.

⁴ابن كثير، التفسير، ج1، ص726.

أو منهما معا، إذ هما المرجع لكل مسلم يريد الحق، ويستترشد إلى الصواب في معرفة الأحكام التشريعية واستنباطها، وهذا ما فعله الحافظ ابن كثير لما استنبط ما في القرآن من فقه وأحكام وكذلك فعل المحدثون في جانب السنة، والفقهاء جمعوا الأحكام وأدلتها من الكتاب والسنة في كتبهم الفقهية، لذلك نجد تداخلا كبيرا بين هذه العلوم، فمفسر القرآن لا غنى له عن النظر في السنة، وكذا شارح الحديث لا غنى له عن الرجوع إلى القرآن، والفقهاء لا غنى له عنهما معا.

الخاتمة

الحمد لله الذي بمنه وفضله تتم الأعمال الصالحات، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم، وبعد : فمن خلال البحث في منهج ابن كثير في تفسيره في هذه الرسالة اتضح أن المنهج الذي اختاره ابن كثير وسار عليه في تفسيره هو أمثل المناهج التفسيرية، وأحسنها، وأصحها، حيث اعتمد في تفسيره على تفسير القرآن بالقرآن، وتفسير القرآن بالسنة، وتفسير القرآن بأسباب النزول، وأقوال الصحابة والتابعين، وأقوال المجتهدين، وأهل اللغة، وهذه هي أصح مصادر التفسير.

كما تبين لنا أن من أهم ما يميز تفسير ابن كثير عن سائر كتب التفسير: اهتمامه بتفسير القرآن بالقرآن واعتباره مصدراً أولياً لا يجوز العدول عنه عند وجوده، وتمسكه بعقيدة السلف في الكلام على آيات العقائد، بل وفي جميع تفسيره، واهتمامه بنقد الأسانيد ومتون الحديث.

كما تبين لنا بروز شخصية ابن كثير بشدة في تفسيره، وذلك من خلال مناقشته لما يسوقه من أحاديث وآثار، وبيان الصحيح والضعيف من الأسانيد والمتون، وتوجيه الأقوال، وبيان الصحيح والراجح منها من غيره، مما يميزه عن كتب التفسير التي لم يتعرض لها أصحابها لمناقشة الأسانيد والمتون، الأمر الذي دفع بعض العلماء إلى اعتبار هذا التفسير من أصح التفاسير إن لم يكن أصحها على الإطلاق، وليس مستبعداً أن يكون هو أصح التفاسير، لأن تفسير الطبري فقط من يمكن أن ينافسه على هذه المرتبة.

كما تبين لنا أيضاً استفادة ابن كثير من كتب الأقدمين وعلومهم ومع ذلك فهو يقف من جميع ما ينقله عنهم موقف الناقد البصير، فيقبل ما يراه صحيحاً، ويرد ما ليس كذلك، أيضاً تبين لما اعتمد المفسرين وغيرهم على هذا التفسير، وثناء العلماء المسلمين عليه عامة.

كما تبين مقدار ما خلفه الحافظ ابن كثير للمكتبة الإسلامية من زاد علمي عظيم، ومؤلفات لا تحصى، جعلته ذا باع طويل في العلم في عصره، وجعلته موضع ثناء الأقدمين والمتأخرين من كافة علماء المسلمين.

هذا ونسأل الله العليّ القدير بأن يجعل كلامه القرآن ربيع قلوبنا، وجلاء أحراننا، وأن يرزقنا الإخلاص في القول والعمل إنه هو ولي ذلك والقادر عليه، وصلّى اللهم وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

فهرس الآيات القرآنية:

رقم الآية	رقم الصفحة	السورة والآية
سورة البقرة		
187		وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ
169		وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ
228	50	وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ
158	58	إِنَّ الصِّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ
256	29	لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ
21	62	يَا أَيُّهَا النَّاسُ عِبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ
186	62	يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ
240	64	وَالْمُطَلَّقَاتُ مَتَّعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ
98	65	مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ
117	69	بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
102	69	وَمَا يُعْلِمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ
49	73	وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِّنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ
143	74	سَوَاحٍ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ سَبِيحًا
282	75	سَوَاحٍ يَأْبُ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا سَبِيحًا
282	75	سَوَاحٍ يَهْدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ سَبِيحًا
282	82	سَوَاحٍ تَشْهَدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِّجَالِكُمْ سَبِيحًا
سورة النساء		
59	35	سَوَاحٍ سَنُ تَأْوِيلًا سَبِيحًا
83	44	سَوَاحٍ رَدُّهُ إِلَى الرَّسُولِ سَبِيحًا
163-165	57	سَوَاحٍ وَحِينَئِذٍ إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ سَبِيحًا
12	66	سَوَاحٍ بَعْدَ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دِينٍ سَبِيحًا
108	82	سَوَاحٍ خَفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ سَبِيحًا
سورة المائدة		
38	55	سَوَاحٍ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ سَبِيحًا
55	63	سَوَاحٍ وَلِيكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ سَبِيحًا
03	72	سَوَاحٍ أَهْلَ لَعْنِ اللَّهِ بِهِ سَبِيحًا
114	60	سَوَاحٍ أَنْزَلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ سَبِيحًا
سورة آل عمران		

33	106	سَمَحَ تَبَيُّضُ وَجْوهٍ وَتَسْوَدُّ وَجْوهٌ سَجِي
سورة الأنعام		
37	82	سَلَّحْنِ ءَامِنُوا وَلَمْ يَلْمِسُوا إِيْمَنَهُمْ بِظُلْمٍ سَجِي
55	97	سَقَّحْ صَلَّأْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ سَجِي
56	59	سَمِعْ عِنْدَهُ مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ سَجِي
سورة التوبة		
75	104	سَمَّحَ الَّذِينَ ءَامِنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ سَجِي
سورة الرعد		
60	41	سَمَّحَ يَرَوْنَا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْفُسُهَا سَجِي
سورة هود		
33	105	سَمَّحَهُمْ شَقِيٍّ وَسَعِيدٍ سَجِي
سورة النحل		
55	89	سَمَّحْنَا عَلَيْكَ الْكَتِبَ تَبَيَّنَا سَجِي
57	44	سَمَّحْنَا لَنَا إِلَيْكَ أَلْذَكَرَ لَتُبَيَّنَ لِلنَّاسِ سَجِي
71	69	سَمَّحَ لِي سُبُلَ رَبِّكَ ذُلًّا سَجِي
سورة إبراهيم		
67	04	سَمَّحَ أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمٍ سَجِي
سورة الحجر		
67	26	سَمَّحَ لَهَا مِنْ قَرَارٍ سَجِي
سورة الإسراء		
61	106	سَمَّحَ ءَانَا فَرَقْنَاهُ سَجِي
66	16	سَمَّحَ عَلَيْهَا الْقَوْلُ سَجِي
72	25	سَمَّحَ كُونُوا صَالِحِينَ سَجِي
75	82	سَمَّحَ لِمَنْ أَلْقَرَاءَانِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ سَجِي
سورة مريم		
70	13	سَمَّحَ تَقِيًّا سَجِي
74	98	سَمَّحَ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا سَجِي
سورة الحج		
81	78	سَمَّحَ هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا سَجِي
سورة لقمان		
37	13	سَمَّحَ الشِّرْكَ لَظْلَمٍ عَظِيمٍ سَجِي
56	34	سَمَّحَ اللَّهُ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ سَجِي
سورة الأحزاب		

56	04	سَوَاحُّ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ سَجِي
سورة يس		
71	72	سَهْلُهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ سَجِي
73	23	سَهْلُخُجْنِ عَنِّي شَفَعْتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقَذُونَ سَجِي
سورة ص		
45	29	سَهْلَجَرَوَا ءَايَتَهُ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ سَجِي
سورة الزمر		
45	38	سَهْلُخُزَادِنِي اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَشَفْتُ ضُرَّهُ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَتُ رَحْمَتِهِ سَجِي
سورة الزخرف		
67	03	سَهْلُخُكُم تَعْقِلُونَ سَجِي
سورة فصلت		
75	44	سَهْلُخُهُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَاءً سَجِي
55	03	سَهْلُخُ فُصِّلَتِ ءَايَتُهُ فُرَّ ءَانَا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ سَجِي
سورة الأحقاف		
63	17	سَهْلُخُ عَدَّ اللَّهُ حَقَّ سَجِي
سورة محمد		
44	24	سَهْلُخُ يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْءَانَ سَجِي
سورة النجم		
55	03	سَهْلُخُ يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى سَجِي
سورة الرحمن		
56	14	سَهْلُخُ الْإِنْسَانُ مِنْ صَلَّصِلٍ كَاَلْفَخَارِ سَجِي
سورة المنافقون		
82	01	سَهْلُخُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ سَجِي
سورة النبأ		
70	14	سَهْلُخُ لَنَا مِنَ الْمَعْصِرَاتِ مَاءٌ نَجَاجَا سَجِي
سورة الطارق		
37	04-03	سَهْلُخُ أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ٢ النَّجْمُ الثَّاقِبُ سَجِي
سورة الغاشية		
73	25	سَهْلُخُ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ سَجِي
سورة الضحى		
64	05	سَهْلُخُ وَفَّ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى سَجِي

فهرس الأحاديث النبوية:

الحديث	رقم الصفحة
من قال في القرآن بغير علم	44
اللهم فقهه غي الدين وعلمه التأويل	45
اقطعوا يدها اليمنى	58
أسلم ولو كنت كارهًا	59
يا معشر النساء تصدقن وأكثرن الاستغفار فإني رأيتكن أكثر أهل النار	83

قائمة المصادر والمراجع:

- ابن إياس، البدائع، ج1.
- ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1992.
- ابن تغري بردي، بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج1.
- ابن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل القرآن تح: محمود محمد شاكر، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، د.ط، د.ت.ن.
- ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، د.م.ن، د.ط، د.ت.ن، ج1.
- ابن حجر العسقلاني، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، المكتبة السلفية، د.ط، د.ت.ن.
- ابن علي الفضل بن حسن الطبرسي، مجمع البيان في التفسير، دار المعرفة، بيروت، ط2، 1988.
- ابن قاضي شهاب، طبقات الشافعية، دار عالم الكتب، بيروت، ط1، 1987.
- ابن كثير الدمشقي، جامع المسانيد والسنن، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، د.ط، 1994. ج1.
- ابن كثير، البداية والنهاية، مكتبة المعارف، ط1، ج13.
- ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، دار ابن حزم، بيروت، ط1، 2000.
- ابن كثير، فضائل القرآن، تح: أبو الحسن الحويني، مكتبة ابن تيمية للنشر، توزيع دار ماجد عسيدي، جدة، ط1، 1416هـ.
- ابن كثير، مقدمة تفسير القرآن العظيم، تح: محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط1، 1997، ط2، 1992. ج1.
- ابن كثير، مقدمة طبقات الفقهاء الشافعيين، مكتبة الثقافة الدينية، بورسعيد، د.ط، 1993.
- أحمد شاكر، عمدة التفسير عن الحافظ بن كثير، دار الوفاء، ط2، 2005.
- أحمد عمر عبد الله الغالي، التفسير بالرأي ماله وما عليه، رسالة ماجستير، 1400هـ، إشراف أبو بكر الجزائري.
- بدر الدين الزركشي، البرهان في علوم القرآن، د.م.ن، د.ط، د.ت.ن، ج1.
- جرجي زيدان، تاريخ آداب اللغة، دار الهلال، د.ط، د.ت.ن، ج3.
- جلال الدين السيوطي، طبقات الحفاظ، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1983.
- حياة ناصر الحجي، السلطة والمجتمع في سلطنة المماليك، جامعة الكويت لجنة التأليف والتعريب والنشر، الشويخ، ط1، 1997.

- الداودي، طبقات المفسرين، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ط، د.ت.ن، ج 1.
- الذهبي، سير أعلام النبلاء، مؤسسة الرسالة، ط 1، ج 1، 1982.
- الراغب الأصفهاني، مقدمة جامع التفسير، تح: د. أحمد حسن فرحات، دار الدعوة، ط 1، 1984.
- راغب السرجاني، قصة التتار من البداية إلى عين جالوت، دار الأريب، د.ط، د.ت.ن.
- سليمان ابن إبراهيم اللاحم، منهج ابن كثير في التفسير، دار المسلم، ط 1، 1999.
- السيوطي، الاتقان في علوم القرآن، مطبعة مصطفى الحلبي، مصر، ط 3، 1370هـ، ج 2.
- الشركاني، البدر الطالع، دار الكتاب الإسلامي، د.ت.ن، ج 1.
- الطاهر ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، د.ط، ج 1، 1983.
- الطبري، تفسير الطبري، تح: محمود محمد شاكر، ج 1، دار المعارف، مصر.
- عبد العظيم الزرقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن، دار الكتاب العربي، بيروت، ط 1، 1995.
- علي السيد علي محمود، الحياة الاقتصادية في جده في عصر سلاطين المماليك، المطبعة التجارية الحديثة، القاهرة، 1991.
- علي بن سليمان العبيد، تفاسير آيات الأحكام ومناهجها، دار التدمورية، ط 1، 2010.
- الفيروز آبادي، بصائر ذوي التمييز، لطائف الكتاب العزيز، تح: محمود علي النجار، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، ط 3، 1996.
- قاسم عبده قاسم، عصر سلاطي المماليك - التاريخ السياسي والحضاري -، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ط 1، 1998.
- المباركفوري، تحفة الأحوذني، بشرح جامع الترمذي، دار الفكر للطباعة والنشر، د.ط، د.ت.ن، ج 8.
- محمد ابن ادريس الشافعي، الرسالة، تح: أحمد محمد شاكر، مطبعة مصطفى البابين، مصر، ط 1، 1938.
- محمد الخضري بك، تاريخ التشريع الإسلامي، دار الفكر، ط 8، 1967.
- محمد النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ج 2.
- محمد حسين الذهبي، التفسير والمفسرون، مكتبة وهبة، د.ط، د.ت.ن، ج 1.
- محمد علي كرد، خطط الشام، د.م.ن، د.ط، د.ت.ن، ج 2.

- مساعد مسلم آل جعفر، مناهج المفسرين، مؤسسة دار الكتب للطباعة والنشر، ط1، 1980.
- المقريري، السلوك لمعرفة دول الملوك، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1997، 1.
- مناع القطان، مباحث في علوم القرآن.
- الموسوعة الفقهية، إصدار وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، ط2، 1983. طبعة ذات السلاسل، الكويت، ج1.
- نقولا زيادة، دمشق في عصر المماليك، نشر بالاشتراك مع مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، بيروت، نيويورك، 1966.

الصفحة	العنوان
أ	مقدمة
6	الفصل الأول: عصر ابن كثير وحياته
7	المبحث الأول: عصر ابن كثير
7	المطلب الأول: الحالة السياسية
11	المطلب الثاني: الحالة الاجتماعية والاقتصادية
18	المطلب الثالث: الحالة الثقافية والعلمية
20	المبحث الثاني: حياته، شيوخه، تلامذته وآثاره العلمية
21	المطلب الأول: نسبه ومولده ونشأته في طلب العلم
23	المطلب الثاني: شيوخ ابن كثير وتلامذته
27	المطلب الثالث: آثاره العلمية
31	الفصل الثاني: التفسير وأنواعه ومنهج ابن كثير في تفسيره
32	المبحث الأول: مفهوم التفسير وأنواعه
32	المطلب الأول: مفهوم التفسير
36	المطلب الثاني: التفسير بالآثر
41	المطلب الثالث: التفسير بالرأي
47	المطلب الرابع: ماهية التفسير الفقهي
54	المبحث الثاني: منهجه في التفسير
54	المطلب الأول: تفسيره للقرآن بالمأثور: تفسير القرآن بالقرآن، تفسير القرآن بالسنة، تفسيره القرآن بأقوال الصحابة والتابعين
61	المطلب الثاني: علوم القرآن في تفسير ابن كثير: المكي والمدني وأسباب النزول والنسخ والقراءات
67	المطلب الثالث: علوم اللغة والبلاغة في تفسير ابن كثير
76	المطلب الرابع: أقوال العلماء في تفسير ابن كثير
80	الفصل الثالث: تطبيق منهج ابن كثير في تفسير آيات الشهادة والإقرار
81	المبحث الأول: تفسير آيات الشهادة والإقرار بالآثر
81	المطلب الأول: استخدام القرآن والسنة في تفسير آيات الشهادة والإقرار
84	المطلب الثاني: استخدام أقوال الصحابة والتابعين في تفسير آيات الشهادة والإقرار
87	المبحث الثاني: علوم القرآن وعلوم اللغة في تفسير آيات الشهادة والإقرار
87	المطلب الأول: علوم القرآن في تفسير آيات الشهادة والإقرار "المكي والمدني، وأسباب النزول، والنسخ، والقراءات"
89	المطلب الثاني: علوم اللغة والبلاغة في تفسير آيات الشهادة والإقرار
92	المبحث الثالث: استخراج الأحكام ومقارنة أقوال الفقهاء

	خلال تفسير آيات الشهادة والإقرار
92	المطلب الأول: استخراج الأحكام خلال تفسير آيات الشهادة والإقرار
95	المطلب الثاني: مقارنة أقوال الفقهاء خلال تفسير آيات الشهادة والإقرار
و	الخاتمة

لقد تبين لنا من خلال بحثنا في منهج ابن كثير في تفسيره إتباعه لمنهج تفسيري هو من أمثل مناهج التفسير وأصحها ، حيث اعتمد فيه على تفسير القرآن بالقرآن من خلال ذكر الآية والآية المفسرة لها ، وتفسير القرآن بالسنة لأن هذه الأخيرة جاءت خادمة ومفسرة لكثير من آيات القرآن الكريم ، وتفسير القرآن بأسباب النزول ، وأقوال الصحابة والتابعين ، وآراء المجتهدين في إيضاح معاني القرآن ، وأهل اللغة وقواعدهم المؤطرة للتفسير ، وكلها تعد مصادر صحيحة للعملية التفسيرية ، كما تطرقنا من خلال هذه الرسالة إلى الوقوف على بعض إسهاماته في مجال التفسير الفقهي وكيفية عرضه للأقوال الفقهية الواردة في مسألة معينة وطريقته في الترجيح بينها دون تعصب أو تفضيل آخذين بعين الاعتبار سورة البقرة أنموذجا للدراسة والتحليل بهذا الصدد.

الكلمات المفتاحية: التفسير الفقهي، ابن كثير، الأحكام، الشهادة، الإقرار.

It has become clear to us through our research on Ibn Kathir's approach to his interpretation that he follows an exegetical approach, which is one of the best and most correct methods of interpretation. The Noble Qur'an, the interpretation of the Qur'an with the

reasons for its revelation, the sayings of the Companions and followers, the opinions of the diligent in clarifying the meanings of the Qur'an, the people of the language and their rules that frame the interpretation, all of which are valid sources for the interpretative process. Contained in a specific issue and his method of weighing them without fanaticism or preference, taking into account Surat Al-Baqarah as a model for study and analysis in this regard.

Keywords: Fiqh interpretation, Ibn Kathir, rulings, testimony, acknowledgment.

